تسبيحة الزمن

الجزء الثالث

رويدة الدعمي

(١)

مرت السنوات والأعوام على الأستاذة الجامعية (تسنيم) وكأنها ساعات وأيام، فلم تشعر إلا وقد كبر الأولاد وصاروا شباباً . . حتى إن جنات وعلي صارا أطول منها ! !

(جنات وعلي وهبة الرحمن) كانوا يشبهون أباهم الأستاذ (بهاء) إلى حدٍ كبير ، أما الصغيرة (مريم) فكانت تشبه والدتها الأستاذة تسنيم ولكنها لا تقل جاذبية عن اختيها الكبيرتين . .

اليوم هو حفل تكليف البنت الصغرى مريم فلقد أكملت تسع سنوات قمرية من عمرها . .

قامت جنات واتجهت نحوها وفي يدها علبة جميلة قدمتها لمريم وهي تقول :

– افتحيها حبيبتي وأعطِني رأيكِ فيها ؟

فتحت مريم العلبة ودهشت وهي ترى قلادة رائعة قد نقش عليها اسمها !

عانقت أختها الكبرى بفرحٍ وهي تردد :

– اسمي ! إنه اسمي !

دمعت عينا جنات ثم طلبت من أختها أن تحافظ على هذه القلادة قائلة :

– أرجو أن تحافظي عليها يا نور عيني فهي ذكرى من والدتي المرحومة .

فغرت مريم الصغيرة فاهها لما سمعته من جنات ، التفتت نحو والدتها والكلمات تتقطع في فمها الجميل :

– ماذا . . تقصد . . جنات . . يا ماما ؟ !

لفّت تسنيم ذراعها بلطف حول كتفي ابنتها وابتعدت بها قليلا عن بقية أفراد العائلة، ثم صارت تتحدث معها بينما كان الجميع قد انشغلوا بتقطيع الكعكة وتوزيع العصائر..

تكلمت تسنيم بهدوء وقد لاحظت ارتباك ابنتها وذهولها :

– اسمعي حبيبتي.. أنتِ اليوم كبيرة بما فيه الكفاية لتعرفي الحقيقة التي كنا قد اخفيناها عنكِ طوال السنوات الماضية..

رددت الفتاة في حيرة : حقيقة!

– نعم يا بُنيتي.. فالحقيقة هي أن إخوتك الثلاثة هم إخوتك من أبيكِ فقط أما والدتهم فهي امرأة أخرى..

صاحت مريم بحرقة :

– ماذا؟ أنتِ لستِ والدتهم؟!

وضعت تسنيم كفها على فم ابنتها وهي تقول :

– أشش .. لاتقولي هذا الكلام فأنا أمهم التي ربتهم منذ كانوا صغاراً بعد أن توفت والدتهم رحمها الله بعد ولادتها ل (هبة) مباشرة.

تساءلت مريم ببراءة :

– هذا يعني.. أن أمهم الحقيقية.. ميتة!؟

انزعجت تسنيم لكلام ابنتها، قالت بعيون دامعة :

– وهل تريني أمًا غير حقيقية يا مريم؟!

أجابت الصغيرة وهي تمسح دموع امها بعد أن صارت تتلألأ في عينيها الجميلتين :

– لا . . لا بالعكس يا ماما فلا أحد يمكن أن يصدق بأنكِ لستِ أمهم !

ابتسمت تسنيم وهي تقول :

– إن الأم الحقيقية يا مريم هي من تُربي وتتعب لأجل الأولاد ، وليس مهمًا أن تكون هي من ولدتهم، بل الأهم من هذا أن تجعل كل فرد فيهم إنسانًا صالحًا ونافعًا لنفسه ولمن حوله.

هزت مريم رأسها وهي تُقبّل يد أمها وتقول :

– والآن يا ماما . . حدثيني كيف حصل أن أصبحتِ الزوجة الثانية لأبي؟

أجابت تسنيم :

– أنا الزوجة الأولى يا حبيبتي.

قالت مريم بدهشة :

– ولكن كيف هذا !

– إنها قصة طويلة يا حبيبتي وغريبة بعض الشيء !

– لا أعلم لماذا إنتابني الحزن عندما علمت أن لأبي زوجة أخرى غيرك !

أمسكت تسنيم بيد ابنتها وهي تمسح على رأسها باليد الأخرى وتقول :

– لا تذهب بك الأفكار بعيدًا يا بُنيتي، سأوضح لك كل شيء اليوم مساءً إن شاء الله ، وسأتحدث لك عن تلك الانسانة الرائعة والتي اخترت إسمكِ إكرامًا لها وللصداقة القوية التي كانت تجمعني بها.

– هل أعرف من هذا أن اسمها مريم؟

– نعم بالضبط !

نظرت مريم الصغيرة إلى القلادة التي كانت بيدها قائلة :

– وهذه قلادتها صح؟ إنها تحمل إسمها والذي هو إسمي .. ولذلك أهدتها جنات لي في ذكرى عيد مولدي !

وقبل أن تتكلم تسنيم اردفت مريم :

– هل هي نفسها (ماما مريم) التي نذهب دائمًا لزيارة قبرها؟

–نعم هي نفسها يا حبيبتي.

– ولكن ألم تخبريني بأنها أختك؟

هزت تسنيم رأسها وهي تقول :

– نعم بالفعل هي اختي، فالصديقة الوفية والمخلصة يا حبيبتي تكون بالنسبة لنا أغلى من الأخت !

– ولكن كيف تحبينها بهذا الشكل وقد حاولت أن تأخذ أبي منكِ !؟ أن أمركِ عجيب يا ماما !

ربتت الأم على كتف ابنتها وأشارت إليها بالقيام وهي تقول :

– سأخبرك بكل شيء مساءً .. أعدك ، أما الآن فعلينا العودة إلى حيث أبيكِ وإخوتكِ فمن غير اللائق أن نتأخر عليهم هكذا في حين أنهم يحتفلون بذكرى (تكليفك) وبلوغك السن الشرعي يا حبيبتي.

(٢)

وكما وعدت الأم ابنتها ، فلقد قضت تسنيم تلك الليلة وهي تحكي لمريم عن ماضيها قائلة :

– بعد فترة ليست بالقليلة من زواجنا أنا ووالدك أكد لي الأطباء حقيقة كوني انسانة لا أستطيع الإنجاب ، لا تعرفي يا ابنتي كم عانيت في حينها ليس لأجلي فحسب بل لأجل والدك الذي بقي بسببي بلا أولاد لسنوات عديدة . . إلى أن جاء ذلك اليوم الذي وفقني الله فيه إلى إقناعه بالزواج من طالبتي الجامعية (مريم) حيث كانت أقرب الطالبات إلى قلبي ، لم يوافق والدك في البداية وحتى هي رغم أنها كانت معجبة جداً بشخصية الأستاذ بهاء – اقصد والدك طبعا – لكنها عندما تعلقت بي رفضت أن تكون ضرتي لولا إصراري وتوسلي بالله واهل البيت عليهم السلام الذين يسروا لي قضاء تلك الحاجة وتزوج حينها بهاء من مريم ليرزقهم الله بجنات وعلي وهبة الرحمن ثم فارقت مريم الحياة لأن قلبها كان مريضاً منذ الطفولة !

لا تعرفي مقدار الحزن الذي أصابني جراء فراقها فلم تكن مجرد صديقة أو ضرة طيبة بل كانت أخت ونعم الأخت بالنسبة لي !

وهكذا بعد أن لم يكن لديَّ أي مسؤولية تجاه أي طفل فجأة أصبح في رقبتي مسؤولية تربية ثلاثة أطفال ! !

حاولت أن أكون لهم نِعم الأم والسند وأن لا اجعلهم يشعرون بغياب والدتهم رحمها الله تعالى..وكنت دائمًا ما أتذكر هذه المقولة الرائعة في تعاملي مع أولاد زوجي :

عش حياتك على مبدأ :

" كن مُحسناً حتى وإن لم تلقَ إحسانا ! ! ليس لأجلهم بل لأن الله يحب المُحسنين" .

قالت مريم لأمها :

-فعلا.. مقولة رائعة، ما أجمل لو طبقها جميع البشر في تعاملاتهم مع الآخرين !

اردفت مريم بلهفة :

- أكملي.. أكملي يا ماما !

أكملت تسنيم ولم تكن تتوقع هذه اللهفة من ابنتها :

- وبعد عام واحد تفاجأني التحاليل بخبر (حملي) رغم أنني لا أستطيع الحمل أو الإنجاب ! !

تساءلت مريم بدهشة :

- فعلا ماما.. كيف حملتِ بي رغم أن الأطباء أكدوا لكِ انه من المستحيل أن يكون ذلك !

ابتسمت تسنيم وهي تمسح على رأس ابنتها مرددة نفس العبارة التي قالتها للطبيبة حينما عرفت بالخبر :

– لا يوجد شيء إسمهُ (مستحيل) في قاموس القدرة الإلهية . .

ألم يقل تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون) ؟ !

ارتمت مريم في حضن والدتها وهي تقبلها وتردد :

– أشكر الله لأنكِ أمي . . أشكره سبحانه على نعمة وجودكِ بيننا .

في اليوم التالي . .

بينما كانت العائلة تجلس حول مائدة الغداء قال بهاء لولده علي :

– عليك اليوم أن تذهب إلى بيت (أم إيهاب) رحمها الله وتطمئن على أحوال أولادها . .

قال علي وقد ساءه الأمر :

– ولكن يا أبي . . هل هم صغار السن حتى أذهب للاطمئنان عليهم ؟ فكلهم يكبرونني سنًا ! !

صاح بهاء بغضب :

– متى تترك اسلوبك الوقح هذا ؟ امرتك أن تذهب إلى بيتهم فلا تجادل !

نظرت تسنيم إلى علي وكأن عينيها تقول له شيئًا !

فهم علي ما قصدته تسنيم من نظرتها تلك فطأطأ رأسه وهو يتمتم :

– حسنٌ حسن . . ليس لديَّ إلا السمع والطاعة .

هز بهاء رأسه ارتياحًا وهو يقول :

– هكذا أريدك دائمًا . .

قالت تسنيم وقد ارتاحت هي الأخرى لتصرف علي :

– عن إذنك يا أبا علي . . إذا سمحت لي أن أذهب معه لأرى إن كان الشباب بحاجة لأي شيء، فمنذ ثلاثة أسابيع لم أذهب إليهم وقد يكون الطعام الذي وضعته لهم في (المُجمِّدة) قد نفذ !

أجابها بهاء بإستياء :

– ولكن ما بكِ يا تسنيم؟ ألم أخبركِ بأن الاستاذ قاسم ينتظرنا اليوم على العشاء في منزله !

أردف بهاء وما زال صوته ينم عن الاستياء :

– ثم لماذا أريد من علي أن يذهب إليهم . . أوليس لهذا السبب؟ سيتفقدهم ويأتينا بالأخبار، والأفضل أن يأخذ معه جنات .

صاحت جنات وقد غصت بلقمتها :

– ماذا؟ أذهب معه؟ ولوحدي !

نظر لها والدها شزراً وهو يقول :

– ما معنى (لوحدي) هذه؟ ! هل أخاكِ نكرة أم ماذا؟ !

إستاء علي من كلمة (نكرة) التي نعتهُ بها والده وشعر بأن كرامته قد جُرحت فأراد أن يتكلم إلا أن نظرات تسنيم كانت تتجه نحوه !

قالت جنات بارتباك :

– لا أقصد بأنه نكرة يا أبي . .

وهنا شعرت بأن علي سيقفز من مكانه غيضًا لأنها أعادت هذه الكلمة بعد والده!

أكملت وهي تبلع ريقها بصعوبة من شدة الارتباك :

- لكنني لا أعرف ماذا أفعل في بيت كل ساكنيه من الرجال يا أبي!

قالت هبة التي أرادت أن تخرج اختها من المأزق فزادت الطين بلة :

- وليسوا رجالا كبارًا في السن.. إنهم شباب!

صاح الأب بهن :

- كفاكن هراءً ، وبما أنكن عارضتنَّ أمري فستذهبن جميعكن مع علي.

قالت مريم معترضة : لكني لم أتكلم يا أبي!

نظر إليها بهاء بحدّة وهو يصرخ في وجهها :

- لو أنني انتظرت دقائق أخرى لسمعت رأيكِ الكريم أنتِ أيضًا!

ضرب الأب كفًا بكف وهو يتأفأف ويردد :

- والله عال جدًا.. الصغار يملون على الكبار ما عليهم فعله..!

أرادت تسنيم أن تهدأه فنظر إليها وهو يقول :

- وأنتِ لا تدافعي عنهم.. لقد جعلتِهم جميعًا يتطاولون عليَّ في كلامهم، ومنذ اليوم سأنتهج معهم نهجًا آخر، سأريهم العين الحمراء التي كان عليهم أن يرونها منذ البداية!

قرّبت مريم رأسها من هبة وهي تسألها :

- ماذا يعني أبي بالعين الحمراء!؟

قرصتها هبة من ذراعها وهي تُتمتم :

- اسكتي الآن !

قام الجميع من المائدة بعد أن أطلق الأب قراره النهائي :

- سنذهب أنا وأمكم إلى دعوة العشاء بينما تقضون أنتم فترة المساء عند إيهاب وأخويه . . إنتهينا .

(٣)

هيّأت الفتيات الثلاث أنفسهن لمرافقة أخيهن علي إلى بيت أم إيهاب ، كانت المرة الأولى التي ستخرج فيها مريم من منزلها بعد دخولها سن التكليف الشرعي، اتجهت إلى غرفة والدتها وطرقت الباب، جاءها صوت والدتها : تفضل.. الباب مفتوح!

اتجهت مريم نحو تسنيم وهي تقول :

– ماما.. انظري إلى حجابي، هل هو مستوفي لشروط الحجاب الصحيح؟

نظرت تسنيم لابنتها من أعلى رأسها إلى اخمص قدميها، فتحت لها ذراعيها وهي تقول :

– ما شاء الله، تبارك الرحمن.. ما أجملكِ يا غاليتي، نعم مستوفٍ للشروط بإذن الله تعالى.

– وما هي شروط الحجاب بالضبط يا أمي؟

– أن يكون فضفاضًا واسعًا لا يشف عمّا تحته، أي أن لا يكون القماش شفافًا يبدي لون الجلد، ولا يكون ضيقًا يوضح تفاصيل الجسم يا حبيبتي.. كما علينا أن نختار الألوان التي لا تجذب النظر، وأخيرًا أن يكون ساترًا لكل أجزاء الجسم ما عدا قرص الوجه والكفين!

قالت مريم :

– ولكن يا ماما..لماذا لا تشتري لي عباءة زينبية مثلكِ أنتِ وأخواتي.. فهي تستوفي كامل هذه الشروط!

– سيكون ذلك قريبًا بإذن الله تعالى، أعدكِ بذلك بنيتي الحبيبة.

قبّلت مريم والدتها واتجهت نحو الباب للخروج من الغرفة لكنها توقفت فجأة.. سألتها تسنيم :

– هل هناك أمر آخر تودين السؤال عنه؟

عادت مريم أدراجها وهي تقول :

– نعم إن كان لديك وقت طبعًا !

– اسألي حبيبتي.. كل وقتي لكم أنتِ وأخوتك.

– ماما.. ماذا تعني كلمة (التكليف) ؟!

– إن الإنسان يا مريم عندما يبلغ هذا السن يعني أنه أصبح (مكلفًا) بكل الواجبات التي فرضها الله عليه، فأنا مثلا عندما أكلفكِ بأمر ما فهذا يعني أنني أطلب منكِ تحمل مسؤولية ذلك الأمر، فالله سبحانه تعالى كلّفكِ منذ هذا العمر بتحمل مسؤولية نفسكِ وما عليها من واجبات شرعية كالصلاة والصوم والحجاب وغيرها..

وضعي في بالكِ يا عزيزتي إنكِ بعد أن تكلفتِ فكل شيء ستقومين به سُيكتب !

– يُكتب !؟ وأين يُكتب يا ماما؟

ابتسمت تسنيم وهي تجيب :

– نعم يا حبيبتي.. يُكتب في صحيفة أعمالك، فبعد إكمال تسع سنوات قمرية ينزل عليكِ ملكان يكتبان كل ما تقومين به من أعمال مهما كانت

صغيرة ! ! وسواء كانت صالحة أم لا ! فلا يضيع عند الله شيء أبدًا وسنجده أمامنا يوم الحساب . . وهو قوله تعالى (ومَن يَعمل مِثقالَ ذرةٍ خيراً يره ، ومَن يَعمل مِثقالَ ذرةٍ شراً يره) .

– ولكن قد يخطأ الإنسان بل وينسى وجود الملكين فيبدأ باكتساب الذنوب . . هل يعني هذا إنه سيحاسب على كل أخطائه حتى وإن كان بسبب الجهل أو النسيان والغفلة ؟

فرحت تسنيم وهي ترى ابنتها مهتمة كل هذا الاهتمام بالسؤال عن أمور دينها ، ودعت الله في سرها لها وابنتها ولباقي أفراد عائلتها بحسن العاقبة . . قالت أخيراً :

– إن الله يا حبيبتي ما خلق البشر ليعذبهم ، بل حتى مع اكتسابهم للذنوب وحتى بعد عنادهم وتجرأهم على الله بالمعاصي ترك باب (التوبة) مفتوحًا لمن آمن واستغفر .

– هل يعني هذا أننا عندما نستغفر الله من ذنوبنا ونتوب منها سيغفرها الله لنا بكل سهولة ؟ !

– نعم يا حبيبتي . . لكن الأهم أن تكون توبتنا خالصة لله تعالى مع الندم والإصرار على ترك تلك الذنوب ، أما أن نستغفر ثم نعود فنذنب ثم نستغفر ثم نعود وهكذا . . فهنا لن يقبل الله منا توبتنا لأنها ليست توبة صادقة والدليل عودتنا إلى الذنوب كلما سنحت لنا الفرصة !

– وإن كانت التوبة صادقة ولم يرجع الإنسان للمعصية فهل سيحبه الله ويقبل توبته ؟ !

– نعم بكل تأكيد . . فكيف لا وهو القائل (وقل استغفروا ربكم إنه كان غفارا) ؟ !

في بيت أم إيهاب كان الشباب الأربعة يجلسون أمام شاشة التلفاز وقد شدتهم مباراة للمنتخب الوطني ، أما الفتيات فكنَّ يتفقدن إحتياجات البيت من تنظيف وطبخ وغيرها كما تفعل أمهن في كل مرة بالضبط . .

شعر علي بالعطش ، قال لإيهاب :

– إداء المنتخب نشف ريقي ، أرجوك اسعفني بالماء البارد !

أجابه إيهاب وهو يهم بالقيام :

– فعلا والله . . كنا نتوقع لعب أفضل من هذا بكثير !

اتجه إيهاب نحو المطبخ فوجد جنات هناك وهي تعد لهم طعام العشاء . .

لم يدخل بل بقى متسمراً عند باب المطبخ وهو يتساءل مع نفسه :

– هل سيأتي ذلك اليوم الذي يحقق الله فيه أمنيتي لتقاسمني هذه الفتاة حياتي ؟ !

ثم صار يتذكرها وهي طفلة عندما تأتي مع الاستاذة تسنيم لزيارة والدته قبل وفاتها . . لقد كانت جنات حينها صغيرة ومرحة كثيراً ، أما اليوم فلقد صارت شابة جميلة ومهذبة جدا . .

التفتت جنات نحو الباب فإذا بإيهاب يقف وينظر إليها بكل حنان، ارتبكت كثيراً ولم تعد تعرف ماذا تفعل؟!

هنا صاح علي بأعلى صوته :

- ألم يكتمل تحضير الماء يا إيهاب؟ هل تريدني أن أعلمك من ماذا يتكون؟ إنه يا صاحبي عبارة عن ذرتي هيدروجين مع ذرة واحدة أوكسجين! ها.. هل ستنجح في تحضيره قبل انتهاء المباراة؟!

شعر إيهاب بالخجل وخاصة بعد أن سمع ضحكات أخويه (سيف وحسام) وهما يسخران من موقفه هذا!

اتجه بسرعة نحو الثلاجة ، أخذ الماء وعاد إلى الصالة مسرعًا، حينها فقط كانت جنات قد تنفست الصعداء..

دخل إيهاب صالة الجلوس وقد بدى عليه الارتباك قليلا فظن علي أن أمراً ما قد حدث في المطبخ.. ثم تبادر إلى ذهنه أن إيهاب قد أساء الأدب مع إحدى أخواته!

قام علي وهو يقول :

- سأعيده بنفسي إلى الثلاجة خذ راحتك يا إيهاب.

دخل علي المطبخ فوجد جنات تعد الطعام فسألها بغضب :

- أين هبة ومريم؟!

أجابت بتوتر :

– إنهما . . إنهما في الطابق الثاني، ستكملان تنظيفه وتنزلان على الفور.

نظر علي إليها شزراً ثم خرج وهو يتأفأف !

وفي طريق العودة إلى المنزل تحدث علي مع أخته التي تكبره بعام واحد قائلا :

– هل أساء إيهاب الأدب معكِ يا جنات ؟

– ماذا؟ إيهاب؟ . . لا . . لا أبداً !

قالت جنات عبارتها هذه بشيء من الارتباك لم يكن ليخفى عن أخيها مما حدى به إلى تكرار السؤال بصيغة أخرى :

– عندما كنتِ تقفين لوحدكِ في المطبخ ودخل هو ليحضر الماء . . هل تحدث معكِ بأمرٍ ما؟ !

شعرت جنات بالبرودة الشديدة التي صارت تسري في جميع أطرافها رغم حرارة الجو ! ! قالت أخيراً :

– أبداً صدقني . . أقسم إليك بروح والدتنا !

حينها استعاد علي هدوءه ولأنه كان كثير الغيرة على أخواته فلذلك صار يتمتم مع نفسه بالقول :

لن أرضخ لأوامر والدي مرة أخرى إن طلب مني أن أصطحبكن معي إلى هنا . . فليست في كل مرة ستسلم الجرة !

(٤)

في تلك الليلة لم تنم الفتيات الثلاث مطلقًا !

لقد قضت جنات ليلتها تلك بالتحدث إلى اختها هبة الرحمن عن (إيهاب) وكيف كانت نظراته لها !

كانتا تتهامسان حتى لا تستيقظ اختهما الصغرى مريم وتستمع إلى حديثهما الشبابي هذا، فهي برأيهما ما زالت صغيرة على هذه الأمور ! !

لم تكن الأختان تعرفان بأن مريم كانت مستيقظة وهي تسمع كل ما يدور بينهما !

قالت هبة بفضول :

– ولكن من يقول بأنه كان ينظر إليكِ بإعجاب ؟

تأفأفت جنات وهي تردّ عليها بالقول :

– ما بك يا أخية ؟ لقد شعرت بنظراته تلك . . صدقيني !

عادت هبة إلى التساؤل :

– ولكن قد تكون نظراته عادية جداً بينما أنتِ تفسرينها على هواكِ ! !

قالت جنات وقد شعرت بشيء من الصحة في كلام اختها :

– أتعرفين يا هبة . . كانت غلطة أبي منذ البداية وكان على ماما أن تقنعه بعدم ذهابنا . . صحيح ؟

هزت هبة رأسها وهي تردد :

– صحيح . . صحيح !

قالت جنات :

– لقد سمعت ماما تذكر حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو (ما خلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما) .

– ماذا تقصدين يا جنات ؟

– اقصد أن إيهاب عندما دخل المطبخ ووجدني لوحدي كان يستطيع أن يتكلم معي بأي شيء أو أن يتصرف بأي تصرف يمليه عليه الشيطان لولا انه شاب متدين .. صحيح ؟

هزت هبة رأسها مرة أخرى وهي تقول :

– صح .. صحيح !

أكملت جنات :

– لكنه التزم الصمت واكتفى بالنظرات التي كانت توحي لي بالشيء الكثير !

استهجنت هبة كلام أختها الكبرى هذه المرة ولم توافقها الرأي بالقول :

– ولكنها مجرد نظرات .. ما بك تعملين من الحبة كبة ! !

ثم أردفت وقد إستعدت للنوم :

– والله يا جنات لو سمع أبي أو أخي علي بكلامك هذا لما تركوك بسلام .. . بل لما تركوا ذلك الشاب المسكين بسلام أبدا ! !

وضعت جنات رأسها على الوسادة وهي تتخيل ما قد تؤول إليه الأمور ..

أخرجت هبة رأسها من الغطاء متسائلة :

– هل تريدين القول من كل كلامك السابق بأن إيهاب يرغب بالزواج منكِ؟

قالت جنات وهي تحاول أن تنهي الحديث :

– حتى وإن كان يتمنى ذلك فعلا، فلا أظن بأن والدي سيوافق، فإيهاب في النهاية ما هو إلا ابن تلك المرأة الفقيرة التي ساعدها أبوانا وجعلاها تحصل على ذلك المنزل !

اما أنا فأنتمي إلى عائلة راقية ومثقفة.. فأبي وأمي أستاذان جامعيان، وإيهاب مجرد شاب فقير يعمل سائقًا للأجرة !

قالت هبة وهي تؤكد كلام جنات :

– نعم بالفعل.. وحتى سيارة الأجرة هي في الأصل لأبينا.. أم نسيتِ ذلك !؟

قالت جنات بإحباط : لا.. لم أنسَ ذلك !

ثم أردفت بحزن :

– رغم أنني أراه شابًا متدينًا ومناسبًا..لكنه فقير جدًا للأسف الشديد.

هنا قامت مريم من فراشها وقد شعرت بأنها ستنفجر إن بقت تمثل دور النائمة !

قالت وقد وقفت على قدميها ورمت الغطاء بعيدًا :

– إسمعا ما سأقوله الآن.. إن الفقر ليس عيبًا أبدًا فالرزق بيد الله سبحانه وتعالى، ثم ألا تتذكرا سيرة رسولنا محمد (صلى الله عليه وآله) ألم يكن

شاباً فقيراً عندما تزوج من سيدة قريش (السيدة خديجة) رضوان الله عليها ؟ !

قالت جنات وهي تتوسل اليها :

– أرجوكِ اخفضي صوتك . . أنتِ محقة في كل ما تقولين ، لكن اندفاعك هذا سيجعل الجميع يعرف بالأمر !

حينها شعرت مريم بالخجل وقالت باعتذار :

– آسفة يا اختي الحبيبة لكني لم أحتمل سماع حديثكما وأنتما تصفان ذلك الشاب بالفقير ، إن الفقير الحقيقي كما تقول أمنا هو الذي يفتقر إلى الدين والأخلاق حتى وإن كان يمتلك من المال ملايين بل مليارات !

اما الغني الحقيقي فهو ذلك الذي يملأ الإيمان قلبه ويقنع بكل ما لديه بل ويشكر الله على ذلك ، فالمهم انه يعمل والباقي على الله تعالى ، والأهم من هذا أنه في سلامةٍ من الدين . . وهذا يكفي !

قالت هبة بدهشة :

– والله إن كلامك يشبه إلى حد كبير كلام ماما تسنيم . . سبحان الله !

ثم أدارت هبة بوجهها نحو اختها الكبرى وهي تقول :

– ولكن ماذا إن خطبك إيهاب بالفعل يا جنات ؟

– سأكون في حيرة من أمري . . طبعًا ! قد يكون رأي والدي بأن هذا الشاب لا يمكن أن يوفر لي حياة كريمة ، وسيكون رأي ماما تسنيم عكس ذلك !

قالت هبة مبتسمة :

– حينها أنصحك بالاتجاه لأخذ الإستخارة ! فإن كانت جيدة اقنعي والدي حينها عن طريق ماما تسنيم، وإن لم تكن كذلك فوافقيه الرأي على رفض إيهاب . . أم ماذا تقولين؟

وقبل أن تجيب جنات قالت مريم :

– ولماذا الإستخارة؟ إن كان غني الأخلاق والدين ولديه سيارة يعمل فيها ليجلب الرزق الحلال، وقد أكمل دراسة الإعدادية ولولا مسؤوليته تجاه اخويه لأكمل دراسته الجامعية أيضا . . هل يوجد أفضل من هكذا إنسان؟

لم تحتمل هبة فصرخت في وجه مريم :

–ألا ترين أن كلامك أكبر من عمرك؟ ثم أنت تعارضيني على كل كلمة !

نظرت جنات إلى هبة نظرة حزينة وهي تقول :

– لا يا هبة، صحيح أن كلامها أكبر من عمرها لكنه عين المنطق، لقد ورثت مريم الحكمة من ماما تسنيم، إن ما تقوله صحيح فمجتمعنا يحترم صاحب المال والجاه وينظر للفقير نظرة دونية حتى وإن كان إنسانًا محترمًا !

ولقد وصف الشاعر كل هذا بالقول :

إذا خطب الغنيّ نساء عصري

رقصن من المسَرَّة والبِشَارَة

وإن جاء الفقير ولو تَقِيًّا . .

فَزِعنَ إلى صلاة الإستخارة !

(٥)

إيهاب هو الأخ الأكبر لسيف وحسام، ماتت والدتهم بعد وفاة زوجها بسنوات وتركتهم تحت رعاية الأستاذة تسنيم والأستاذ بهاء منذ كانوا صغاراً..

إلتقت تسنيم بأم إيهاب قبل أكثر من عشرين عامًا، مدّت لها يد العون وبنت لها منزلا صغيراً يأويها مع أولادها ويخلصهم من ذل الإِيجار وصعوبة العيش، بقت تسنيم على تواصل مع هذه الانسانة المتعففة وساعدتها على إدخال أولادها الثلاثة إلى المدرسة..

إيهاب الذي يبدو لك عندما تنظر إليه من الوهلة الأولى انه ابن العشرين عامًا لكنه في الحقيقة صار يقترب كثيراً من عامه الثلاثين!

اشترى له الأستاذ بهاء سيارة صغيرة ليعمل بها سائق أجرة وكان ذلك منذ أن أكمل دراسة الثانوية العامة، وعندما طلب منه الزوجان أن يكمل الدراسة الجامعية رفض بشدة وأخبرهم بأنه سيعمل ليعين أخويه في إكمال دراستهما..

وها هما الآن (سيف وحسام) كل منهما يعمل – معاون طبيب – في مشفى المدينة بعد تخرجهما من المعهد الطبي ، بقى الأخوة الثلاثة من غير زواج بل ولم يفتحوا هذا الموضوع بينهم أبدا..!

حاول الأستاذ بهاء مراراً أن يُقنع الأخ الأكبر بالزواج إلا أن إيهاب كان يؤجل الموضوع متعلّلا بأخويه!

اما الآن وبالذات بعد أن ذهب علي وأخواته تاركين المنزل على أجمل ما يكون صار إيهاب يفكر بأمر زواج أحدهم !

قال وكأنه ينظر إلى المستقبل القريب :

– يجب على أحدنا أن يتزوج . .

فغر سيف فاهُ ثم قال مازحًا :

– هل وضعت لك تلك الفتاة شيئًا في الطعام !

نظر إليه إيهاب بحزن وهو يقول :

– كان الطعام لذيذًا جدًا . . لقد ذكرتني تلك الفتاة بوالدتي الغالية . .

طأطأ كل من سيف وحسام رأسيهما وهما يرددان :

– رحمها الله تعالى .

حاول سيف وكان يمتاز بروح الفكاهة أن يخفف من حزن أخيه بالقول :

– وبما أنك تأثرت بهؤلاء الضيوف أكثر منا إذن أنت من عليك أن تتزوج ولسنا نحن !

جاءه صوت إيهاب وكأنه رجل في الخمسين من عمره :

– لا عليكما بي ! الزمن زمنكما أنتما ،فما زلتما في ريعان الشباب ولا أريد أن يفوتكما القطار كما . . .

صمت إيهاب ولم يُكمل في حين أنه كاد أن يقول : كما فاتني !

عرف أخواه ما كان يريد قوله فقال حسام بتأثر :

– والله يا أخي لا أتزوج حتى تجد لنفسك بنت الحلال وتتزوج، بعدها قد أفكر أنا بالزواج . .

قال سيف وهو لا ينفك عن الضحك والاستهزاء :

– الله . . الله . . ستتزوجان وتتركاني غارقًا في العزوبية !

ضربه حسام على كتفه وهو يقول :

– أراك ستتزوج حتى قبل أخيك الأكبر . . صحيح ؟

قال سيف وقد توقف عن الضحك لكن الابتسامة ما تزال مرسومة على محياه :

– وما العيب من ذلك ؟ انتما فقط أعطياني الضوء الأخضر وسآتي ببنت الحلال التي تكون شريكة لي وخادمة لكما .

قال إيهاب بمزيد من الجد :

– لا نريدها خادمة لنا . . يجب أن تكون هناك امرأة في هذا البيت تعيد له حيويته ونشاطه، لذلك قلت عليكما أن تتزوجا . . مفهوم ؟

عاد سيف لروح المزاح وهو يقول :

– عندي فكرة جهنمية !

قال حسام بلهفة :

– ما هي ؟ أسعفنا !

أجاب سيف وهو يعتدل في جلسته :

– لماذا لا نستأجر (خادمة) من أحد مكاتب تأجير الخدم ؟ !

قام حسام من مكانه وضربه بالوسادة على رأسه وهو يردد :

– ألا تترك مزاحك السخيف هذا؟ ! أخوك يقول (تزوجا) وأنت تقول (خادمة) يا لك من سفيه !

وهنا ابتسم إيهاب لأول مرة في هذه الجلسة وهو يضرب كفًا بكف ويقول :

– فعلا شر البلية ما يُضحك !

قال سيف وقد بدى جادًا هذه المرة :

– ولكن لماذا (شر البلية) يا أخي؟ وما بها الخادمة؟ !

قال إيهاب محاولاً إنهاء الحديث :

– من ترضى أن تخدم في بيت يسكنه ثلاثة شباب دون امرأة بينهم؟ حتى لو كانت تلك الخادمة عجوزًا فلا أظنها سترضى !

تساءل سيف متحمسًا :

– وما الحل إذن؟ !

جاءه صوت إيهاب حادًا وصارمًا :

–الحل أن يتزوج أحدكما ثم بعد فترة يتزوج الآخر . .

خفض الاثنان رأسيهما حياءً ثم قال حسام وقد همَّ بالقيام :

– لن أتزوج قبلك يا أخي .

شعر سيف بالاحراج فصار لزامًا عليه أن يردد هو الآخر ما قاله حسام، قال بعد هنيهة من الصمت :

– أنا أيضًا لن أتزوج قبلك يا إيهاب !

(٦)

بعد تفكير طويل قرر إيهاب أخيراً أن يتقدم لخطبة جنات وليحدث ما يحدث !

لم تصدق جنات ما قالته لها تسنيم وهي تمسك بيدها :

– لقد قال له والدكِ أن ينتظرنا بضعة أيام حتى يعرف رأيكِ . .

خفضت جنات رأسها حياءً وقد توردت وجنتاها وارتسمت علامات الرضا والقبول على محياها ، قالت تسنيم والابتسامة لا تفارقها :

– الظاهر بأنكِ موافقة مبدئيًا ، وأنا لا أريد أن أقف بوجه سعادتكِ لكن اسمعي يا بُنيتي أنتِ الآن مقبلة على الجامعة ويجب أن نضع أهم شرط للزواج وهو اكمالك للدراسة . . أم ماذا تقولين؟

– نعم يا ماما . . وهذا ما أردت قوله .

في المساء تناقش الزوجان في هذا الموضوع وقد قرر بهاء الاتصال بإيهاب والتحدث إليه بخصوص شرطهما الوحيد . .

كان كل شيء يجري على ما يرام وحسب ما يتمنى كل من جنات وإيهاب .

بعد أن صلت جنات صلاة الليل في تلك الليلة ونامت رأت رؤيا غريبة جداً في المنام !

رأت وكأنها تريد أن تصعد في السيارة مع إيهاب وفجأة جاء من بعيد ابن عمها (طاهر) ليسحبها من يدها بلطف وهو يقول : إن القدر شاء أن تكوني لي أنا ! ثم أخذها وذهب بها بعيداً ! !

استيقظت وهي ترتجف من الخوف، شعرت أن الأمور التي كانت تحسبها ستجري كما تحب سوف لا تكون كذلك!

في الصباح وبينما كان الجميع يتناول طعام الإفطار رنَّ هاتف بهاء، وما أن نظر إليه قال مستبشراً :

- أنه اخي إحسان..!

بلعت جنات ريقها بصعوبة وهي تنصت للمكالمة بحذر!

- السلام عليكم

- وعليكم السلام أهلا يا أبا طاهر.. كيف الأحوال؟ وما الذي جرى لتذكرني هكذا ومنذ الصباح الباكر!

-أخي الغالي.. أبا علي.. كيف حالك؟

- أهلا بالأخ الذي أنسته أوربا ذِكرَ أخيه؟ ما الذي حدث وتذكرتنا يا إحسان؟

- لا لم أنساكم يا أخي ونور عيني والدليل أنني سأكون عندكم مساءً ، ها نحن في المطار؟

- هل تمزح معي؟

- لا يا بهاء أقسم بروح والدينا بأني أقول الصدق.. ها أنا أحمل حقيبة سفري وهذا هو ولدي (طاهر) بجانبي ننتظر ساعة تحليق الطائرة!

- وما هذه المفاجأة؟

- سأخبرك بكل شيء عندما نكون عندكم بإذن الله، ثم بدأ إحسان بالضحك وسط ذهول بهاء ودهشته !

رفض بهاء خطبة إيهاب لابنته بعد أن أعلن إبن عمها عن رغبته في الزواج منها . .

صار طاهر يعيش مع جنات في نفس المنزل وهو ينتظر أن تتم مراسيم الخطبة والعقد الشرعي ليأخذها إلى مكان معيشته في أوربا !

كان طاهر شابًا قوي البنية وسيمًا فيه شبه كبير من أولاد عمه بهاء . .

حاول مرارًا أن ينفرد بإبنة عمه ليخبرها بمشاعره تجاهها وكيف إنه إختارها رغم فاتنات أوربا وجميلاتها ! لكن جنات كانت تكره الجلوس معه أو محادثته، بل لطالما ردّدت أمام عمها إحسان انها لا ترغب حاليًا بالزواج ولا تفكر إلا في أمر إكمال الدراسة !

كان العم يضحك ويأخذ الأمر من باب الحياء فكيف لفتاة ملتزمة ومتدينة مثل جنات أن تفصح عن رغبتها بالزواج !؟ حتمًا هي ستبدو لهم وكأنها رافضة لهذا الأمر ولكن الحقيقة غير ذلك !

هذا ما كان يفكر به إحسان، وهذا ما أقنع به ولده طاهر والذي لم يكن يرَ غير الصد والجفاء من إبنة عمه وشريكة المستقبل !

كانت جنات تحترق من الداخل ولا أحد يشعر بها غير تسنيم . .

فلطالما نظرت الدموع تتلألأ في عينيها الرائعتين وكلما سألتها عن رأيها بطاهر تختنق الفتاة بعبرتها وتصمت !

وفي إحدى ليالي الصيف المقمرة صعدت جنات إلى سطح الدار لتنام هناك ، طرقت تسنيم باب غرفة البنات ثم دخلت فلم تجد غير هبة ومريم ، سألتهما عن جنات فجاءها الجواب وبصوت واحد : صعدت إلى الطابق العلوي لتنام هناك .

صعدت تسنيم إلى سطح المنزل ورأت جنات قد فرشت لها فراشًا في وسطه واستلقت عليه ، ارتبكت قليلا وهي ترى إن أحدهم يقترب منها ، هرعت للجلوس وهي تمسح دموعها . .

قالت تسنيم وهي تجلس بقربها :

- لا تخافي يا حبيبتي . . هذه أنا . . أمك !

سكنت جنات قليلا ، مدت تسنيم يدها لتمسك بيد جنات وهي تنظر إلى عينيها اللتين بدتا أكثر جمالاً إذ اجتمعت فيهما الدموع وضوء القمر !

(٧)

سألتها تسنيم بحنان :

– إلى الآن لم نسمع منكِ يا جنات كلمة واضحة لا بالرفض ولا بالإيجاب !

أتمنى أنا ووالدكِ أن نعرف هل أنتِ راضية بالزواج من طاهر أو رافضة له يا ابنتي ؟

– أماه أرجوكِ .. أنتِ تعلمين أني لا أحبه !

– هل تكرهيه ؟

– لا .. على الإطلاق !

– إذاً ماذا تقصدين بأنك لا تحبيه ؟

– أقصد تلك المشاعر الجميلة التي تجمع بين الرجل والمرأة !

– ولكن كيف تحبيه وأنتِ لم تعطِه حتى فرصة واحدة للتحدث إليكِ ؟ ثم إنكِ تبحثين عن الحب قبل الخطوبة والزواج وهذا أغلبه غير ناجح لأنك ستحبين من لا تعرفيه !

إن الحب الحقيقي يا ابنتي هو ما يأتي عن معرفة جيدة بالشخص وبصفاته الروحية لا الجسدية فقط ! !

طأطأت جنات رأسها وهي تقول :

– وإيهاب .. ألسنا نعرفه منذ زمن طويل ؟

– أهاا .. قولي هذا إذن .. أنت تفكرين بإيهاب .. صحيح ؟ !

– نعم .. لا أخفي عليكِ ذلك يا أمي !

– اسمعي يا حبيبتي هذا لا يسمى حبًا بل إنه إعجاب ليس إلا . . صدقيني ! الحب يأتي بعد أن تعاشري الشخص وتتعرفي على صفاته كما أخبرتك ، وغالبًا ما يأتي هذا الشعور الجميل بعد عقد القِران بين الرجل والمرأة وتعرف أحدهما على الآخر عن قرب . . أما أن تكوني قد رأيتِه مرتين أو ثلاث ولفترات متباعدة دون أن تعرفي شخصيته الحقيقية فهذا لا يمكن أن يكون شعوراً بالحب ! !

– لكن يا أمي صدقيني . . أنا . . أنا اتمنى أن ارتبط به .

هنا حضنت جنات أمها وصارت تبكي . . فما كان من تسنيم إلا أن حضنتها بكل عطف وقد نزلت دموعها هي الأخرى من دون إرادتها !

قالت وهي ترفع رأسها نحو تسنيم :

– لنفرض أنني لم أحب عفواً لم أعجب بإِيهاب . .فهل برأيكِ سيعجبني طاهر هذا ؟

– ولمَ لا !

– لا أعرف . . لم يدخل قلبي !

– هذا لأن قلبكِ مشغول بشخص آخر ، يجب أن تنسي أمر إيهاب يا حبيبتي .

–لكن . . ألم يخطبني من أبي ؟ ألم توافقا عليه ؟ كيف ظهر هذا الـ (طاهر) في حياتنا فجأة ؟ ! كيف ؟

ثم صارت تضرب بكفها على وجهها وهي تبكي بقوة وتلعن حظها العاثر ! !

حاولت تسنيم تهدأتها بالقول :

– جناتي الغالية . . اسمعيني أرجوكِ ! فكري في الأمر من جميع النواحي ، أولا إن إيهاب يكبرك بسنواتٍ كثيرة بينما طاهر لا يكبرك إلا بسنة واحدة ، كما أن وجودك في أوربا سيمنحك فرصة الدراسة بأفضل الجامعات عالميًا .

– لكن يا ماما . . إن طاهر أشبه ما يكون باولئك الغربيين ولا يوجد فيه شيء من صفات الرجل الشرقي . . ألم تنتبهي لملابسه ؟ وكذلك تصرفاته ؟ وحتى كلامه ! صحيح أنني رأيته يؤدي الصلاة في وقتها لكن ما أدراني إن كان هذا الأمر فعلا من صفاته أم إنه أمامنا فقط يؤديها ؟ ! لا أعرف طبيعة تصرفاته هناك وهو يعيش منذ طفولته في بلاد الغرب ؟

– لا أعلم يا جنات . . لكني أشعر بأن هناك حكمة في موضوع خطبتك من هذا الشاب . . قد يكون بحاجة إلى الهداية في بعض الأمور المهمة ، نعم قد تتمكنين من التحدث معه وإصلاح ما يمكن إصلاحه من أمر دينه ودنياه ؟ ! ألا تشعرين مثلي بأن هناك تدبيراً إلهيًا في الموضوع ؟ ففي اليوم الذي قررنا أن نعطي فيه موافقتنا على إيهاب يتصل عمك ليخبرنا بأمر مجيئه !

هنا تذكرت جنات الرؤيا الغريبة التي رأتها في تلك الليلة ، صمتت ولم تعقب !

قالت تسنيم بشيء من الحيرة :

– هل صمتك يعني موافقتك ؟ أم ماذا ؟

– لا أريد أن أرفض يا أماه لأني . .

– لأنك ماذا . . تكلمي !

– لأني أخشى أن يكون طاهر فعلا بحاجة ماسة لوجودي في حياته . .فما تشعرين به أشعر به أنا أيضًا . . !

ثم سردت الرؤيا لأمها وعقّبت بعدها بالقول :

– هذا ما يجعلني أخشى الرفض . . رغم عدم رغبتي بالزواج منه على الإطلاق !

– لن يكون هناك زواج يا حبيبتي إلا بعد أن تقتنعي به بالكامل . . سوف يتم عقد القِران بينكما لكن الزفاف والزواج الرسمي سيكون بعد عام من سفرك . . ستكونين حينها قد عرفتِ طباعه وما هي صفاته الروحية وأخلاقه الحقيقية . . وإن لم تقتنعي فستعودين إلى أرض الوطن وكأن شيئًا لم يكن !

– وهل برأيك سيتركني بحالي سنة كاملة ؟ ألم يرغمني على الزواج به قبل هذه الفترة ؟

– سيأخذ والدك عهداً منه ومن أبيه أن يتركا لك حرية اختيار وقت الزواج ، وسيرسلان في طلبنا لنحضر حفل زفافك يا نور عيني .

– ولكن يا ماما كيف إن كان تفكيره يختلف عن تفكيري ؟ ! ماذا أفعل حينها !

– ابنتي الغالية إن الإِنسان المؤمن أينما حل وأينما نزل سيكون له تأثير إيجابي على الآخرين خاصة إذا كان ذلك المؤمن يتمتع بقوة الشخصية ولديه

من العلم والثقافة ما يكفي، حينها سيكون قويًّا ومؤثراً، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : " المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف" .

أكملت تسنيم وهي تشد على يدَي جنات :

– استمعي إلى هذه القصة القصيرة في كلماتها والكبيرة في مضمونها ومعانيها، وجاءت على لسان الأديب سعدي الشيرازي حيث يقول :

(وصلتني من المحبوب يومًا تربةً عطرة، فقلت لها : هل أنتِ مسكٌ أم أنتِ عنبر؟ فأجابتني : لم أكن سوى تربةً وضيعة، إلا أنني جاورت وردةً ردحا من الزمن فأثرت بي واكتسبتُ الكمال منها) .

والآن يا جنات هل ترين بأن الكمال أو لنقل الإيمان ما هي إلا قوى تؤثر في المحيطين بها؟

ثم الا تتذكري معي قصة (سامية) للكاتبة عالية محمد صادق . . والتي قرأناها معًا قبل عام من الآن؟

– نعم اذكرها !

– ألا ترين بعض التشابه بين قصتك وقصتها؟ !

– نعم بالفعل !

– لقد ذهبت إلى بيت عمها وهي لا تعرف ماذا يمكن أن يلاقيها هناك من أحداث، ورغم أنها وابن عمها كانا مجبورَين على الموافقة بتلك الخطبة (أو الخطة) فخطيبها كان يختلف تمامًا عن أفكارها وكان لا يطيق رؤيتها حتى !

إلا انها صمدت وصبرت وأثرت به من خلال أخلاقها والتزامها وثقافتها الكبيرة، بل وأثرت حتى على أسرته وعائلته !

– لكن يا ماما . . سامية ذهبت إلى بيت عمها وقلبها فارغ، أما أنا فقلبي مشغول ! هي لم تحب أحداً قبل خطيبها سامي أما أنا . .

صمتت جنات عند هذه النقطة ودمعت عيناها من جديد !

قالت تسنيم معترضة :

– أنتِ على خطأ يا حلوتي . .اولا سامية لم تذهب وقلبها فارغ ! بل كان مليئًا بحب الله تعالى فهو محبوبها الأول الذي ذابت في حبه ودعته أياماً وليالي ليكون انيسها في غربتها ولتستمد منه العون والقوة والصبر على صعوبة حياتها الجديدة .

و ثانيًا بخصوص انشغال قلبك بذلك الشاب فاستعيذي بالله من الشيطان الرجيم لأنك المفروض فتاة مؤمنة لا ينشغل قلبها إلا بذكر الله فالقلب حرم الله كما تذكر لنا الروايات الشريفة وهو سبحانه الذي سيكون معكِ ولن يتركِ في حياتكِ الجديدة .

صمتت تسنيم قليلا ثم اردفت : وإنَّ بُعد المسافات كفيلٌ بإذن الله على جعلكِ تنسيه شيئًا فشيئًا .

تساءلت جنات بلهفة :

– أنساه ؟ !

– نعم ياغاليتي.. وحتى يتحقق لك نسيان ذلك الشاب عليكِ بالتوكل على الله أولا، وطرد الأفكار السلبية من قلبك وعقلك ثانيًا، والانشغال بالأمور الإيجابية ثالثًا.

تساءلت جنات باهتمام :

–مثل ماذا يا ماما؟ اقصد الأمور الإيجابية؟

– مثل قراءة الكتب الهادفة والمحببة إلى القلب والاستماع إلى القرآن الكريم وقراءته (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)، وكذلك الاستماع أو قراءة المواعظ والحكم، واشغال الفكر ببعض الهوايات الجميلة..

السفر أيضا بحد ذاته يعتبر وسيلة جيدة للنسيان فتغيير مكان العمل أو الحرفة أو الدراسة أو السكن كلها تساعد على النسيان..

– لا أعتقد رغم كل هذا بأنني سأنساه بسهولة!

– بل ستنسيه يا عزيزتي، لأن الله وهب للإنسان نعمة اسمها (النسيان) وسينعم بها عليكِ قريبًا بعد التوكل عليه وكثرة الدعاء والتوسل به سبحانه..

تساءلت جنات بدهشة :

– وهل النسيان نعمة يا أمي؟!

ابتسمت تسنيم وهي تقول :

- نعم يا حبيبتي . . استمعي إلى حديث إمامنا الصادق عليه السلام والذي ورد في كتاب بحار الأنوار عن هذه النعمة العظيمة ، حيث يقول عليه السلام :

(لولا النسيان ما سلا أحد عن مصيبة ، ولا انقضت له حسرة ، ولا مات له حقد ، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا) !

(٨)

كانت كل فرائصها ترتجف وهي تنظر من الأعالي إلى مدينتها وهي تتضاءل في عينيها شيئًا فشيئًا ! !

شعرت بيد طاهر تمسك بيدها (فهي الآن امرأته شرعًا) وصوته يأتيها بعمق :

-هل تخشين ركوب الطائرة ؟

سحبت يدها من يده بارتباك وهي تقول :

- انا ؟ لالا . . اقصد نعم قليلا !

ضحك طاهر وهو يرى ارتباكها ، أعاد راسه إلى الخلف وأسنده إلى المقعد ثم أطلق العنان لخياله وهو يرى في أفق المستقبل القريب عروسته بحلّتها البيضاء وهي تجلس بجانبه إذ يقود هو السيارة بسرعة وينطلق بها كالمجنون إلى حيث السعادة والنعيم . .

أيقضه من ذلك الحلم الجميل صوت خطيبته وهي تجهش بالبكاء ؟

قال وقد التفت نحوها بدهشة :

- ما بك ياحبيبتي ؟ هل حدث لك مكروه لا سمح الله ؟

أرادت أن تخبره بكل شيء عن إيهاب لكنها تذكرت وصية امها وهي تقول لها (ليس من الصحيح أن تسرد الفتاة كل شيء عن ماضيها لخطيبها ، فهذا قد يشكل حاجزاً وعائقًا بين علاقتهما الجميلة فيما بعد) .

أعاد طاهر السؤال مرة أخرى فأجابت :

– لا شيء مهم ! لقد اشتقت لأهلي !

– بهذه السرعة ؟

– نعم !

قال لها بصوت ينم عن الكثير من المحبة والود :

– أنا أعرف بأنكِ غير مقتنعة كثيراً بهذه الخطبة ، فكل شيء يدل على ذلك ! لكن صدّقيني سوف لن ترين مني إلا كل ما يرضيك يا غاليتي ، ولن يجبرك أحد على الزواج بي إلا حين تكونين أنتِ نفسك مقتنعة بذلك .

شعرت جنات بشيء من الطمأنينة لكلامه فلقد كان يبدو صادقًا جدًا ومهذبًا في نفس الوقت .

أكمل بشيء من الحزن :

– تمنيت لو أنكِ سمحتِ لي بالتحدث معكِ قبل عقد القِران لكنت عرفت حقيقة مشاعرك تجاهي وما هي الأسباب التي تجعلك حزينة هكذا ؟ تمنيت لو أعطيتني مجالا حينها لكنت استطعت أن أغير رأيك . . وإن لم أستطع لكنت امتنعت أصلا عن القبول بعقد القِران ، لكن صمتك كان يبدو محيّراً جدًا . . !

قالت جنات وهي تمسح دموعها :

– أنا نفسي كنت حائرة ! لا أعرف هل أقبل أم أرفض ؟

قال وهو ينظر إلى النافذة :

– صدقيني لو كنت قد رأيتُ منك رفضًا قاطعًا ولو بكلمة واحدة لما تجرأت على إتمام الخطبة .

كان طاهر يتحدث بحزن وألم واضحين على صوته، شعرت جنات بذلك وتمنت لو أنها تمالكت نفسها ولم تبكِ أمامه، نظرت إليه فرأته يشيح بوجهه نحو النافذة، قالت بأدب :

– طاهر.. لدي سؤال !

وما أن التفت نحوها حتى لمحت جنات الدموع في عينيه ! مسحها بسرعة وهو يبتسم رغمًا عنه، قال باهتمام :

– نعم.. تفضلي يا نور عيني !

– هل تحبني فعلا ؟

– لن أجيبكِ الآن، بل ستجيبكِ الأيام عن ذلك !

**

في ظهيرة شديدة الحر دخلت تسنيم المنزل وقد بان عليها التعب والإرهاق..

استقبلها بهاء والأولاد وهم يرددون :

– ساعدكِ الله.. تأخرتِ كثيرًا !

قالت وهي تهم بالجلوس على الاريكة :

– لقد كان يومًا حارًا جدًا.. اجارنا الله من حر جهنم !

تساءلت مريم :

– ولكن يا ماما كان بإمكانكم تأجيل موعد اليوم، انه شديد الحرارة !

إجابتها تسنيم :

– أنه ليس كأي موعد حتى نقوم بتأجيله !

لا تعرفي يا حبيبتي كيف انتظر هذا اليوم لحظة لحظة !

قال علي موافقًا كلام اخته الأصغر :

– فعلا يا ماما . . كان بإمكانكم أن تأجلوه إلى يوم آخر . . كما قالت هبه !

اليوم أكثر يوم في حياتي أشعر به بالحر !

قالت تسنيم بحرقة :

– آه يا ولدي . . لو إنك رأيت لهفة عيون الأيتام وهي ترنو نحو أيادينا وما سنقدمه لهم من مساعدات لما كنت قلت هذا الكلام !

إنك الآن تجلس في مكان فيه كل وسائل التبريد والراحة ورغم ذلك تصف اليوم بأنه شديد الحرارة !

لقد دخلنا بيوتهم ورأينا بأم أعيننا كيف انها تخلو من أي وسيلة تبريد ، بل والأكثر من هذا أن أكثرها بيوتًا سقوفها من الصفيح وقطع الكارتون البالي والقماش الممزق !

قالت هبة بعيون دامعة :

– أوه يا ماما . . كفاكِ أرجوكِ !

شاركهم بهاء بالحديث :

– إن أمكم اعتادت على مساعدة الأيتام وعوائل الفقراء منذ سنوات طويلة ، وأنا أبارك لها عملها بل وأشد على يديها الكريمتين .

قال علي تعقيبًا على كلام والده :

- ولكن يا أبي ! نحن اليوم بأمس الحاجة إلى المال خاصة إنني اتهيأ للتسجيل في دورات التقوية للصف السادس الإعدادي ولأكثر الدروس.. ألا يحتاج هذا إلى المال؟ من أين ستأتيان به برأيك؟ !

صاح الأب بولده :

- وما شأنك أنت؟ هذا واجبنا أنا وأمك وليس واجبك يا فتى !

قالت تسنيم محاولة إنهاء النقاش بين الولد وأبيه قبل أن تزداد حدته :

- أرجوك يا بهاء.. لا تعقد الأمور ! دعني أتحدث مع علي قليلاً ليعرف هو وكذلك أخواته بأن ما عملته اليوم من زيارة للفقراء ونحن في هذه الظروف ليس أمراً خاطئًا على الإطلاق، بل قد يكون هو عين الصواب !

قال علي بدهشة :

- عين الصواب ! كيف ذلك بربك يا ماما.. أخبريني؟

تحدثت تسنيم وهي توجه كلامها للجميع :

- اسمعوا يا أحبتي.. إن من العقل والحكمة أن نتصرف نحن بالأموال ونتحكم بها لا أن تتصرف هي بنا وتتحكم بأفعالنا !

تساءل علي :

- ولكن كيف تتصرف الأموال بنا؟

- حتى نملك الأموال يا ولدي لا بد أن نعرف كيف نتصرف بها على أحسن وجه وإلا فسوف تتصرف هي بنا وتستهلك أعمارنا وحياتنا دون أن نشعر !

أكملت وهي تخاطب الجميع :

– الا ترون معي أن احتياجات الإنسان لا تنتهي وكلما حاز على شيء شعر بأنه محتاج إلى أمر آخر ؟ !

وها نحن أمامكم احتياجاتنا كعائلة لا تنتهي مطلقًا ، فإن كنا ننتظر اليوم الذي سنكون فيه غير محتاجين للمال نهائيًا فهذا يعني أننا ننتظر يومًا غير موجود أصلا ! !

ففي رأيكم متى يمكننا مساعدة الآخرين ممن هم أحوج منا ؟ أم تريدون منا أن نغض الطرف عنهم وكأننا لا نراهم ؟

قال علي :

– حسب علمي يا ماما ، الفقراء لم يكونوا حولك ، بل أنتِ من بحثت عنهم بنفسك !

– في البدء يا علي يجب أن تعلم إنني وأبيك بقينا سنوات عديدة بلا أطفال ولم نكن محتاجين للأموال كما الآن بعد أن منَّ الله علينا بكم ، فما الضير لو بحثت عنهم في ذلك الوقت يا ولدي ؟

إن على الأغنياء أن يبحثوا عن فقراء البلد وينتشلوهم من مآسيهم وآلامهم التي ما حلّت بهم إلا بسبب غفلة الأغنياء عنهم وكما يقول الإمام علي عليه السلام " إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما مَنَع غني " .

هل تعلموا أنه سبحانه وتعالى ما رزقنا هذه الأموال الا ليرى كيف نتقاسمها مع من هم بحاجة ماسة إليها ؟ وفي هذا يقول أحد الشعراء :

لم يُعطِك الله ما أعطاك مِن نِعَمٍ

إلا لتوسع من يرجوك إحسانا . . .

ثم اسمعوا هذا الحديث الجميل عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

(الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)

وبهذا نعلم يا أحبتي وبحسب هذا الحديث الشريف بأن الفقراء هم عيال الله بل والأقرب إليه سبحانه . .

وما يؤكد هذا المعنى هو ما ورد في الحديث القدسي عندما سُئِلَ عيسى المسيح عليه السلام : أين نجد الله؟ فقال : عند المنكسرة قلوبهم !

(٩)

سألت هبة :

– الهذه الدرجة يحب الله الفقراء يا ماما ؟

– نعم يا حبيبتي ولقد توعد كل من يحرمهم بالعذاب الأليم . .

قالت مريم بدهشة : بالعذاب الأليم ؟ !

أجابت تسنيم :

– نعم يا مريم . . فهم قد انكسرت قلوبهم بسبب صعوبة الحياة وبسبب ترافة الأغنياء وبخلهم وطمعهم فلو أن كل غني أعطى حق الفقراء والمساكين من الزكاة والخمس والصدقة لما بقي فقير ! !

عادت هبة للتساؤل :

– وكيف توعّدَ الله أولئك الناس بالعذاب ، اقصد الذين منعوا الفقراء حقوقهم ؟

– استمعوا إلى ما جاء في القرآن الكريم بهذا الخصوص أحبتي ، فهذه كلمات الله سبحانه وتعالى تصدح وتتوعد بالعذاب الأخروي نتيجة عدم الإِحساس بالمسؤولية الكبرى تجاه الفقراء والمحتاجين إذ يقول عز وجل في سورة التوبة :

" والذين يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذابٍ أليم ، يومَ يُحمى عليها في نارِ جهنمَ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون " .

قال علي : سبحان الله . . ما أشده من عذاب . . ؟

جاءه صوت تسنيم :

– نعم يا ولدي، وفي المقابل فإن الله اعتبر من يصرف أمواله في سبيل الله والمحتاجين من الخلق فكأنه يُقرض الله قرضًا حسنًا . . هل تصدق ؟ وكأن الله يستقرض الأموال من عباده الأغنياء لأجل عباده الفقراء ؟ ؟ هل تعرفون من هو أكثر رحمة ورأفة منه سبحانه مع العباد !

تساءلت هبة :

– وأين نجد هذا المعنى في القرآن يا ماما ؟ أقصد في أي آية بالضبط ؟

– إنه في قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له) ؟

عاد علي لإعلان دهشته بالقول :

– سبحان الله . . انه تعالى يخاطب الأغنياء بكل لطف ليستميل قلوبهم نحو الفقراء !

وكأن الفقراء فعلا عياله وهو الأب الرحيم الذي يحاول فعل أي شيء من أجل عياله ! !

قالت مريم :

– ماذا تعني عندما شبهت رحمة الله تعالى برحمة الأب الذي يحاول فعل أي شيء لأجلهم ؟

أجابها علي وما زالت الدهشة بادية على وجهه :

– ألا ترين كيف يستخدم الله تعالى كل الأساليب تجاه الأغنياء فقط لأجل أن لا يحرموا الفقراء من أموالهم؟ فساعة يتوعدهم بالعذاب وساعة يستميل قلوبهم بأرق الكلمات؟

هزت مريم رأسها وهي تقول :

– نعم فعلا سبحان الله !

كان بهاء يستمع لكل هذا الحوار الذي دار بين زوجته وأولاده وينصت للجميع باهتمامٍ بالغ !

سألت هبة بفضول :

– ولكن يا ماما.. لماذا لا يرزق الله الفقراء كما رزق الأغنياء فتنتهي المشكلة من الأساس؟

قالت تسنيم :

– أحسنتِ غاليتي سؤال مهم جداً قد يتبادر إلى أذهان الكثير !

في البدء يجب أن تعلموا أن الاختبار الإلهي يمكن أن يكون في الشر وفي الخير ، يقول تعالى في سورة الأنبياء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) فالغنى فتنة واختبار، كما أن الفقر فتنة واختبار!

قالت هبة :

– وكيف يكون الغنى فتنة واختبار؟ الذي أعرفه أن الفقر هو ابتلاء واختبار ؟!

إجابتها تسنيم :

– بل إن الغني أكثر فتنة وابتلاء من الفقير يا حبيبتي، لأن الغنى يأتي بالذنوب والمعصية أكثر من الفقر !

– وكيف ذلك يا ماما ؟

– إن المال يا عزيزتي يُنسي الإِنسان آخرته ويجعله في غفلة – إلا ما رحم ربي

– فكم من عوائل هدم المال سعادتها بسبب المعاصي التي تأتي من كثرة الأموال والمشاكل التي تأتي بسببها ! ! خاصة إن وضع الإِنسان يده بيد الشيطان فاتجه إلى صرف تلك الأموال بالأمور المحرمة أو التافهة !

ردد الجميع : نعم فعلا . . إنها فتنة !

أكملت تسنيم :

– ولقد قلت أن فتنتها أكبر من الفقر لأن الإِنسان قد يخسر بسببها آخرته والعياذ بالله . . اسمعوا معي قوله تعالى في سورة طه :

(ولا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) .

قالت تسنيم بعد قراءتها لهذه الآية : فقط ركزوا معي على عبارة – لنفتنهم فيه – حتى تعرفوا قصدي !

هز الجميع رؤوسهم وهم يرددون :

– نعم . . نعم واضح !

أكملت تسنيم مقارنتها بين الفقر والغنى :

أما الفقر بالنسبة للمؤمن فلن يجعله في غفلة عن ذكر ربه بل بالعكس سيزيد من تقربه لله والتوسل إليه للحصول على العيش الكريم (فقل استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين..) ألا تلاحظون كيف يربط الله الرزق بالاستغفار!

وفي آية أخرى يربطه بالتقوى ومخافة الله (ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب..).

قالت مريم :

- حسنًا وكيف يكون الفقر فتنة يا ماما؟

- أحسنتِ السؤال يا ابنتي .. يجب أن تعلموا قبل كل شيء بأن الفقر ليس بالضرورة أن يكون ابتلاء من الله! فقد يكون نتيجة سوء تصرف من الإنسان في طريقة كسب الأموال أو طريقة صرفها!

فعندما يتقاعس الإنسان عن طلب الرزق من خلال العمل الحلال هل يمكن أن يكون فقره من الله أم من نفسه!؟

هذا بالنسبة للكسب أما بالنسبة للصرف فاعلموا أن الإسلام دين الاعتدال في كل شيء، وحد الاعتدال في صرف الأموال يسمى (الاقتصاد) وما زاد عنه يسمى (تبذير) وما قل عنه يسمى (بخل) والاثنان - اقصد التبذير والبخل - يحرمهما الإسلام لأن نتائجها وخيمة وغير محمودة وتؤدي بالإنسان إلى الفقر من حيث يدري أو لايدري!

أما الفقر الذي يأتي نتيجة لعدم توفر أسباب الرزق فهو ما يسمى ابتلاءً، فالحكمة منه أن يتقرب الإنسان أكثر لربه بالاستغفار والتقوى وهو ما ذكرته لكم في الآيتين السابقتين، وقد يكون لاختبار قدرة الإنسان على تحمل حياة الفقر من دون معصية كالاتجاه للسرقة أو الغش أو أخذ الرشوة أو التعامل بالربا وغيرها من المعاملات المحرمة، وحاشا لله أن يترك عبداً رجاه وأمّل فيما عنده والمسألة تحتاج إلى زيادة يقيننا به سبحانه وأن لا نيأس من رحمته لأنه هنا ستكون نتيجة الاختبار (الفشل والخسران) .

ويكفي فخراً للفقراء بأنه تعالى دائمًا إلى جنبهم سواء في القرآن أو أحاديث رسول الله وأهل بيته، وكذلك من خلال سيرة الأنبياء والمرسلين أو الأئمة والاوصياء عليهم السلام إذ انهم كانوا يقربون الفقراء إليهم أكثر من الأغنياء وكم وصى الله تعالى بالفقير واليتيم والمحتاج في آياتٍ كثيرة أذكر منها بالإضافة إلى ما سبق (وأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر..)

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام :

(من أطعم مؤمنًا حتى يشبع لم يدرِ أحد من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، إلا الله رب العالمين !)

ثم قال عليه السلام : من موجبات المغفرة إطعام المسلم السبغان – أي الجائع – وتلا قوله تعالى" أو إطعام في يومٍ ذي مسغبة، يتيمًا ذا مقربة، أو مسكينًا ذا متربة" .

قال علي :

– لقد ذكرتِ لنا يا ماما ومنذ بداية الحديث آيات قرآنية وأحاديث كثيرة عن حب الله للفقير والتوصية به إلى درجة كبيرة بحيث أستطيع أن أعتبر ديننا الآن هو دين الفقراء !

صمت علي قليلا ثم قال بحسرة وألم :

– لكن يا أماه . . إن الناس اليوم باتوا يكرهون الدين والتدين بحجة أن الله لا ينظر للفقراء والمستضعفين ؟ !

وبأن ديننا – حاشاه طبعًا – يعتني بالمساجد والمصاحف وجمع الخمس والزكاة أكثر من إعتنائه بالفقراء والمساكين ! !

صدقيني يا ماما . . لقد ترك أكثر أصدقائي صلاتهم وصيامهم بسبب هذه الأفكار التي لا أعلم منشأها ! ! حتى أنني قبل فترة قرأت منشور لأحد الشباب على مواقع التواصل الاجتماعي كتب فيه :

(أكره الدين والمتدينين ، أحب أن أكون مسالمًا ومحبًا للناس، لا أضر بأحد، أدخل السرور على الفقراء، وأسعى للخير) !

(١٠)

قالت تسنيم باستياء بدى واضحًا على ملامحها بعدما سمعته من علي :

– ولكن يا ولدي هل رددت على ذلك الشاب؟ ألم تدافع عن دينك؟

قال علي بحزن :

– لا يا ماما..

قالت تسنيم بألم :

– هل تعرف شيء؟

– ماذا؟

– أنا أعذر ذلك الشاب المسكين على كلامه السيء عن الدين ونظرته السوداوية والتي ينظر بها للمتدينين!

فغر علي فاهه وكذلك فعلت هبة ومريم مما حدى بوالدهم إلى الضحك وهو يقول :

– أراهم تفاعلوا كثيراً مع الموضوع يا تسنيم.. انظري إلى وجوههم!

ابتسمت تسنيم هي الأخرى؛ وجاءها صوت مريم :

– دعونا من المزاح الآن ارجوكم .. كيف يكون ذلك الشاب معذوراً في كلامه وهو يقول: أكره الدين والمتدينين؟

قال بهاء وقد توقف عن الضحك :

– عن إذن امكم . . أنا سأجيبكم بالنيابة عنها أولا لأنها تعبت من النقاش كل هذهِ المدة حيث لم ترحموها منذ أن دخلت المنزل ! !

وثانياً لأني أعرف رأيها في الموضوع وهو رأيي أنا أيضًا ولطالما تكلمنا مرارًا وتكرارًا لوحدنا حول هذا الأمر . .

اسمعوا يا أولاد . . إن ذلك الشاب الذي نشر في صفحته عن كونه لا يحب الدين والمتدينين في حين أنه يحب الفقراء ويحب مساعدتهم كما ويحب كل أنواع الخير ما هو إلا ضحية الأفكار السلبية التي بثها أعداء الدين في مجتمعنا ، وقد ساعدهم على ذلك تصرفات الكثير ممن يدّعون التدين في حين أنهم قد حشروا رؤوسهم في السياسة لينالوا حصتهم منها على أساس انهم مجاهدين بإسم الدين ! !

استغل أعداء الله هذه الظاهرة في نشر فكرهم السلبي عن الدين وبأن هؤلاء المتدينين ما هم إلا مخادعين وسراق وهم يمثلون حقيقة الدين الذي لم يتسلط على رقاب الناس إلا من أجل استعبادهم وسرقة خيراتهم ! !

وهذا الشاب وغيره الكثير صاروا ضحية هذه الأفكار المسمومة التي صارت تنخر بالمجتمع . .

قالت تسنيم وكان كل من الحرقة والألم باديين على صوتها الحنون :

– عندما رأى الشباب وباقي فئات المجتمع أن الذين حشروا رؤوسهم في السياسة لأجل السرقة قد مثلوا دين الله – زيفًا – حينها صدقوا ما صارت تبثه القوى المعادية للإسلام ، كيف لا وهم يرون بأم أعينهم كيف أن أولئك

المدعين للتدين صاروا يجمعون الأموال ويستمتعون بها كيفما يشاؤون، ويبذرونها على أولادهم وزوجاتهم ونزهاتهم وباقي متعهم الدنيوية في حين أن شعوبهم ترزخ تحت نير الفقر والبطالة والمرض؟!

قال علي بغضب :

– ولكن يا ماما.. ما علاقة الدين بكل هذا؟ إن كان هناك شرذمة من الذين ادعوا التدين قد فعلوا كل ذلك فهل يعني أن الدين فعلا كذلك!

قالت تسنيم محاولة إنهاء الحديث بعد أن عاد إليها الصداع التوتري كما في كل مرة تتكلم فيه مع زوجها أو زميلاتها عن هذا الموضوع :

– للأسف يا ولدي، لقد انطلت الحيلة على الناس وخاصة الشباب والمراهقين منهم وبدل من أن يحاربوا أولئك المخادعين نراهم صاروا يحاربون الدين الحقيقي بل ويتهموه بأمور لم تكن فيه لا سابقا ولا الآن!! بل وهجموا على أنفسهم أيضًا فخربوا دينهم وحاربوا ربهم بتركهم الصلاة والصيام وباقي الطاعات وصاروا يتجرأون على الله بمختلف المعاصي!!

قال علي وقد شعر بأن الدم صار يغلي في عروقه :

– أعلم إنكِ متعبة يا ماما.. لكن سؤالي الأخير وبعدها اترككي لترتاحي.

– ماهو يا نور عيني.. تفضل!

– هل سنبقى صامتين على كل ما يحصل؟ ما هو الحل برأيكِ يا أمي!

– الحل هو أن نُبين للناس حقيقة دينهم وبأن أولئك الشرذمة المدعين للتدين ليسوا هم قادة الدين أبدًا!!

إنما قادة الدين الحقيقي أولئك الذين كل همهم الفقراء والمساكين ومساعدة المحتاج ، اولئك الذين حتى وإن استلموا الحكم بقوا جياع فقد يكون أحد أفراد شعبهم جائعًا !

فذلك هو علي بن ابي طالب عليه السلام أوليس قائداً دينيا ؟ ماذا كان يفعل أيام حكمه ؟ كان يتفقد الرعية ليلاً ، وعندما يسأله أصحابه عن زهدهُ في الدنيا رغم انه يملك بيت مال المسلمين يقول :

" أأقنع من نفسي بأن يُقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ؟ "

هذه تعاليم الدين الإِسلامي ، وهؤلاء هم رجال الإِسلام الذين يجب أن نأخذ ديننا منهم ونقتدي بهم في صلاتنا وصيامنا وباقي طاعاتنا وفي حبنا للخير والإِنسانية ، لا أن نقوم بترك عبادتنا لله ومحاربة الدين وتصديق كل ما يقال عنه بسبب حفنة من المتخاذلين والذين قبلوا أن يضعوا أياديهم القذرة بيد الشيطان لأجل تمرير مصالحهم الشخصية على حساب الدين وسمعته الطيبة بين الناس ، تلك السمعة والتي بسببهم تشوهت وصار اسم الدين اليوم كلمة ممقوتة لا يرغب أن يسمعها أكثر شبابنا للأسف الشديد !

أضف إلى هذا يا ولدي بأن المتشددين الإِسلاميين وفي كل المذاهب كان لهم دور كبير ويد واضحة وجلية في ابتعاد الناس عن الدين ، أولئك المكفهرة وجوههم والذين يُحرِّمون على الناس كل شيء دون تفاهم ويصعبون الدين ولا يجعلون فيه أي مرونة أو لين – هؤلاء أفعالهم برأيي أشد حتى من الساسة

المتأسلمين – في حين أن الله تعالى يفضل للمؤمن أن يكون هشًا بشًا ليّنًا ليس فظّا ولا غليظًا، قال تعالى (ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

في أوروبا :

دخلت جنات حياتها الجديدة في بيت عمها، قال لها طاهر وهو يسحبها من ذراعها بلطف :

– هيا لأريكِ غرفتكِ.. غاليتي .

ضحك والده بصوتٍ عالٍ وهو يقول :

– هي غرفتها لوحدها أم غرفتكما معًا !؟

تجهمت جنات وشعرت بالخوف مما حداها إلى التوقف وهي تُبعد يد طاهر الذي نظر إلى أبيه مُعاتبًا وهو يقول :

– كلامك هذا قبل أوانه يا أبي ! حاليًا هي غرفتها وحدها .

شعرت بشيء من الراحة وأكملت طريقها مع طاهر الذي كان يسابق الريح بخطواته، صعدا الطابق الثاني ولشدّ ما أدهشها جمال الغرفة وأناقتها ! وقد كُتِب على حائطها بالورق المُذهب اسم (جنات) باللغة الإنكليزية !

قالت بدهشة :

– متى أعددت لي هذه الغرفة ؟

– منذ رأيت صورتك في البريد الالكتروني لوالدي، حينها طلبت منه مباشرة أن يسأل عمي بهاء إن كنتِ مرتبطة أم لا، وعندما تأكدت من عدم ارتباطك بدأت حياتي الجديدة!

قال وهو يلاحظ التعب على وجه خطيبته :

– الآن اتركك لترتاحي من تعب السفر، وسأقوم بتهيئة الطعام فلقد صارت عصافير بطني تزقزق!!

ابتسمت جنات لأول مرة في وجه خطيبها، اخترقت ابتسامتها تلك شغاف قلبه.. ودّعها وخرج من الغرفة فما كان منها إلا أن أقفلت الباب خلفه بإحكام.

وما أن استلقت على سريرها حتى استعادت كلمات عمها إحسان..

رددت مع نفسها : كيف تجرأ وقال تلك الكلمات؟!

شعرت بأنه سوف لن يدعها بحالها، سيحاول بشتى الطرق أن يُسرع في زواجها من ولده!

لقد سمعته يقول هذا الكلام لطاهر في يوم عقد قِرانهما في منزل أهلها، فعندما كان الخطيبان يجلسان إلى جانب بعضهما بعد أن تم العقد الشرعي بينهما وفي تلك الحفلة العائلية أمالَ إحسان برأسه صوب طاهر وهمس في أذنه قائلا :

– لن أدع فترة الخطوبة تطول يا ولدي إطمأن.. ستتزوجا عن قريب!

رددت مع نفسها وهي تدير بصرها في غرفتها الجديدة :

– نعم.. لقد سمعتُ عبارته تلك بوضوح، والظاهر انه الآن يريد أن يفي بوعدهِ لولده!

(١١)

عاشت تسنيم تلك الأيام بقلق واضطراب شديدين، فهي تفكر كثيراً بجنات وحياتها الجديدة، هل أخطأت عندما اقنعتها على الارتباط بطاهر؟! هل سيكون هذا الشاب طيب القلب والأخلاق بحيث أن جنات ستتقبل حياتها الجديدة معه؟

بينما كانت تفكر بهذا رنَّ هاتفها، وما أن شاهدت رقمًا غريبًا حتى فتحت الخط بلهفة وهي تقول :

- السلام عليكم.. جنات!؟

- نعم ماما.. أنا جنات وهذا رقمي الجديد، كيف حالكم يا حبيبتي؟

لم تتمالك تسنيم نفسها، بكت وهي تتحدث بصعوبة :

- آه يا ابنتي.. لا تعلمين مدى خوفي وقلقي عليكِ في تلك البلاد الغريبة والبعيدة، أنتِ أمانة في رقبتي يا جنات.. لكني أخشى أن أكون قد ضيعت الأمانة!

- ولكن لماذا تقولي هذا يا امي.. ارجوكِ؟!

- إن عذاب الضمير يقتلني يا ابنتي.. بالله عليكِ أخبريني! كيف هو طاهر معكِ؟ وهل أنتِ مرتاحة معه!

- نعم يا ماما صدقيني! إنه طيب القلب جداً.. لا يتركني لوحدي مطلقًا بحيث أنني إلى الآن لم أشعر بالوحدة!

يحدثني عن حياته السابقة وعن أمنياته القادمة، يساعدني في أعمال المنزل وعندما..

- وعندما ماذا؟ لِمَ الصمت؟ اكملي!

- وعندما يضايقني عمي في كلامه ينتفض هو للدفاع عني!

- ماذا؟! يضايقك! ولكنك لم تدخلي حياتهم الا قبل فترة قليلة .. هل بدأ عمك يضايقك بهذه السرعة؟ ثم ماذا يريد منك بالضبط؟

- أنه يردد دائمًا أمام مسمعي عبارة متى تتزوجان؟

- اسمعي يا حبيبتي، يجب أن تُذكري عمكِ بوعده لأخيه عندما أقسم له بأنه لن يجبركِ على الزواج بولده على الإطلاق!

- أنا أخجل من محادثته يا أمي؟ أحاول أن أحترمه كوالدي تمامًا!

- هل تريدين أن يتصل به أبوكِ ليخبره ذلك بنفسه!

- لا.. لا ياماما! لا أريد أن يعرف طاهر بأني أخبرتكم، قد يتضايق كثيراً!

دُهشت تسنيم وهي تسمع المنطق الجديد لجنات! هل فعلا هذه هي جنات التي بكت في حضنها قبل أسابيع قليلة وهي تعلن لها بأنها لا تحب طاهر! كيف حدث وقد انقلبت مشاعرها هكذا تجاه ابن عمها؟!

صارت تردد : سبحان مغير الاحوال!

سمعتها جنات فضحكت بخجل وهي تقول :

- اعرف بأنكِ مندهشة كثيراً من أمري يا ماما، لكني اقولها لك بصراحة فحتى أنا مندهشة من تبدل مشاعري بهذه السرعة!

بكت تسنيم وهي تردد :

– الحمد لله.. الحمد لله، انه الدعاء يا ابنتي ! فمنذ إعلان خطبتكما وإلى يومي هذا وأنا الهج بالدعاء لكِ بأن ينسيكِ الله الماضي ويجعلكِ تتقبلين حياتك مع طاهر بسهولةٍ ويسر !

– حسنٌ الآن يا ماما.. سلامي لأبي الحبيب وأخوتي جميعهم، قبليهم بالنيابة عني واحداً واحداً.. سأحاول أن اتصل بكم لاحقًا أما الآن فهذا طاهر يطرق باب غرفتي وعليّ الذهاب..

– في أمان الله يا نور عيني، وأوصلي تحياتي الحارة إليه.

– ستصل بإذن الله.

أغلقت جنات الهاتف، وركضت للباب فتحتها وهي تقول :

– آسفة تأخرت عليك.. لقد كنت أتحدث مع امي،تفضل تفضل بالدخول !

جلس طاهر على حافة السرير وهو يقول :

– وكيف هو حالها؟ وحال بقية العائلة؟

– إنها قلقة عليَّ كثيراً وتشعر بتأنيب الضمير !

– ولكن لماذا؟

– لأني قبل أن أعطي موافقتي على هذه الخطبة كنت قد بكيت في حضنها طويلا وأخبرتها بخوفي وقلقي وعدم رغبتي بالزواج !

نظر طاهر إلى عيني جنات مباشرة وهو يترقب بماذا ستجيب عن سؤاله :

– والآن؟ أقصد.. أقصد ماذا أخبرتها؟ !

ابتسمت جنات وخفضت رأسها بحياء :

– أخبرتها بأني مرتاحة هنا ولله الحمد !

قام طاهر من مكانه وهو يقول :

– أعدكِ بأنك في المرة القادمة ستخبريها بأنكِ سعيدة هنا ولستِ مرتاحة فقط !

مضت الأيام وطاهر يحاول بكل ما يستطيع أن يجعل حياة خطيبته في غاية السعادة، وكانت جنات تشعر بحبه واهتمامه بها حتى صارت هي أيضًا تحاول إسعاده ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . .

كل شيء كان يجري على ما يرام، خطيبها يصلي ويتكلم عن الدين والإيمان وحب الله وهذا ما كانت تتمناه !

في نفس الوقت كان يمازحها ويلاطفها وكلما بقيا لوحدهما كان يلقي عليها أشعار الحب والعشق دون أن يتعدى حدوده ! وهذا أكثر ما كان يعجب جنات فيه، فهو لا يأتي بسيرة الزواج إلا بتلميحات خفيفة على العكس من والده ! فما أن يراهما معًا حتى تبدأ سيمفونية كل يوم :

– متى ترحماني لأرى أولادكما ؟ ألم تتفقا على موعد الزواج ؟ ألم تملا أجواء الخطوبة هذه ؟ ألا تتشوقان إلى حياة الأزواج ؟ !

كل هذه الأسئلة التي كانت تتكرر يوميًا صارت تعكر صفو الحياة على جنات، حتى ضاقت ذرعًا مما حداها في إحدى المرات أن ترد على عمها بعصبية :

– ولكن يا عمي ! ألم تعد والدي بأنك لن تفتح معي موضوع الزواج إلا حينما أطلب أنا ذلك !

تطافرت الدموع من عينيها وهي تقوم وتصعد إلى غرفتها لتغلق الباب بقوة !

شعر طاهر بأن الدم بدأ يغلي في عروقه، حاول أن يتماسك أعصابه، قال لأبيه :

– ولكن يا أبي ! إنها أمانة في أعناقنا ! أهكذا تتصرف مع الأمانة ؟ !

ثم ألم تعطي عهداً لعمي على عدم إجبارها على الزواج مطلقاً ؟ فما معنى كلامك هذا وفي كل يوم ! ؟

– لكني يا طاهر لا أحاول إجبارها بل أنا أحاول إقناعها ليس إلا ! وكل هذا لأجلك أنت !

– لأجلي أنا ؟ ! وهي يا أبي ؟ هي . . ألا تفكر بمشاعرها !

– وما الذي فعلته بربك يا طاهر ؟ أنا فقط أحاول أن أذكركما بين الحين والآخر بأن وراءكما مشروع جميل اسمه (الزواج) .

– تذكرنا ؟ وهل نسينا نحن ذلك !

– نعم يا ولدي . . نسيتما ! أنا أراكما كالأصدقاء لا أكثر . . نعم فعلاقتك بها علاقة صداقة ليس إلا !

– ولكن يا أبي بربك . . نحن الاثنان راضيان بوضعنا هذا، فلماذا تريد الإسراع بالزواج !

– وهل أنت فعلا راضٍ بهذا الوضع يا فتى ؟ !

– نعم يا والدي صدقني.. يكفي انها بدأت تحبني كما احبها.. هذه غاية سعادتي!

ضرب الأب كفًا بكف وهو يردد :

– أتمنى أن أراك يومًا واحدًا.. نعم يومًا واحدًا فقط وقد اتخذت قرارًا صائبًا.. دائمًا على خطأ!

حاول طاهر أن يتكلم لكن والده أكمل حديثه بالقول :

– إنك تريد إسعادها بأي طريقة حتى ولو على حساب سعادتك!

إسمع يا بني إن الرجل الحقيقي هو من يثبت شخصيته أمام امرأته.. وأنا أراك بلا شخصية!

استشاط طاهر غضبًا لكنه قرر أن يستمر في سماع والده إلى آخر كلمة!

– ثم انك تتبعها كالمجنون بل كالطفل الصغير، حاول أن تتصرف معها كرجل! حاول أن تفرض رأيك عليها ولو لمرة واحدة في حياتك!

نظر طاهر لوالده بغضب، شعر بأنه جرح كرامته.. حاول أن يثبت له عكس هذا الكلام وبأنه له شخصيته أمام امرأته التي بدأت تحب هذه الشخصية وتقدّرها كثيراً، قال وهو يتجه إلى الطابق الثاني محاولاً أن يبدو غاضبًا من جنات :

– حسنٌ حسن يا أبي.. سأفعل ما تريده! سأصرخ في وجهها لأفرض شخصيتي عليها وسآمرها لتنزل وتعتذر منك وإن رفضت سأضربها حتى ترتاح انت!

كان صوته يعلو كلما صعد باتجاه غرفة جنات ليُسمع أبيه ما يريد قوله، بينما دقات قلبه كانت تعلن عن شيء آخر !

نعم فما صعد إلا ليطمئن على خطيبته التي ما رآها بهكذا عصبية منذ مجيئها معهم !

طرق الباب بلطف وهو يردد :

- افتحي جنات .. ارجوكِ !

شعرت جنات بأنها بحاجة ماسة إلى الحديث إليه، فتحت الباب وهي تمسح دموعها..

قال وقد شعر بأن قلبه سينقلع من فرط الألم :

- هل.. تبكين؟

- وما الذي يمكن أن أفعله غير البكاء؟

- ارجوكِ غاليتي لا أريد أن أرى دموعك مرة أخرى انها تذكرني بذلك الموقف..

- اي موقف؟

- في الطائرة.. وحديثكِ ذلك عن عدم رغبتكِ في السفر..

ابتسمت وهي تقول بخجل :

- وهل ما زلت تذكره!

قال طاهر بحسرة :

- وكيف لي أن أنساه!

قالت بشيء من الدلال :

– لكنني نسيته !

ابتسم طاهر وهو يردد :

– هل هل فعلا . . ما تقوليه ؟ ألم تتندمي على المجيء معي إلى هنا ؟

قالت بكل ثقة :

– لا لست نادمة !

لم تكد الفرحة تسعه ، أراد أن يصرخ بأعلى صوته بأنه سعيد ، لكنه تذكر كلام والده !

استعاد هدوءه قليلا ثم قال :

– لقد رفعتِ صوتكِ على والدي !

خفضت جنات رأسها وهي تقول :

– نعم وأنا خجلة منك يا طاهر ، انت تعاملني بمنتهى اللطف بينما أنا اليوم كنت فظةً كثيراً مع ابيك !

– اسمعي يا جنة حياتي . . لا عليكِ بما يقوله والدي ، صحيح أنني أتوق إلى الإقتران بكِ اليوم قبل الغد لكني أعدكِ – ووعد الحر دين – بأني لن أفتح سيرة الزواج مطلقًا ما دمتِ غير راغبة في هذا الأمر حاليًا . .

أما عن أبي فلقد حدثته قبل قليل وسيترك هذا الموضوع إلى أن يشاء القدر !

قالت بفرحٍ غامر :

– بل قل إلى أن يشاء الله !

ابتسم وهو يردد : نعم.. نعم.. إلى أن يشاء الله.

قال وهو يسحبها بلطف :

– تعالي الآن لتعتذري من أبي، لقد كان أسلوبكِ قاسٍ معه بعض الشيء، انه لا يريد لنا إلا السعادة.

(١٢)

لم يتواجد طاهر في أحد الأيام منذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من المساء !

استغربت جنات كثيراً فمنذ مجيئها إلى أوروبا وطاهر لم يغب عن ناظريها كل هذه الساعات !

بعد أن انتهت من تناول العشاء مع عمها سألته والعبرة تخنقها :

– عمي أرجوك ، أين هو طاهر ؟ لماذا هاتفه مغلق منذ الصباح ؟ !

لم يحر عمها جواباً ففضل السكوت !

– لماذا الصمت يا عمي ؟ هل أصيب طاهر بمكروه ؟

أجابها بصعوبة :

– أظن . . إنه عاد لصحبة السوء .

– ماذا ؟ ! ! وهل لديه صحبة سوء ؟ !

– نعم للأسف !

ثم أكمل بحزن دفين :

– هذا ما كنت أخشاه يا بُنيتي ، وما حدث اليوم هو ما كان يجعلني الحّ عليكما في مسألة الزواج لعل الله يهديه نهائيا ويتركهم إلى الأبد !

– صحبة سوء ؟ ! ولكن ماذا يفعلون بالضبط ؟

– كانوا سابقًا يتناولون المخدرات ، ثم تركهم وانتقل للعلاج حتى شافاه الله نهائيًا . . لكنه بعد ذلك صار يلتقي بشباب يشربون الخمر !

اعذريني على صراحتي يا ابنتي، لكنك يجب أن تعرفي كل شيء عن طاهر !

بدأت جنات بالبكاء بعد أن أخفت وجهها بين كفيها وهي تعاتب عمها :

– لماذا الآن يا عمي؟ لماذا الآن ! لماذا لم تخبرني منذ البداية؟

حاول عمها تهدأتها وهو يقول :

– لم تمضِ الفرصة يا بُنيتي.. حدثيه عند عودته، توسلي إليه أن يتركهم، هدديه بأنكِ ستتركيه إن عاد للخروج معهم، انه يحبك وسيسمع كلامك.. أنا متأكد !

قامت جنات من مكانها وهي تحمل أواني الطعام إلى المطبخ ولقد غسلت تلك الأواني بدموعها بدل الماء ! !

صعدت غرفتها وبكت طويلا حتى سمعت صوت باب غرفتها يُطرق !

– من.. من هناك؟ !

– أنا طاهر يا نور عيني.. لقد اشتقت لرؤيتك !

كانت تخاف أن يكون مخموراً بعدما سمعته من عمها.. قالت بارتباك :

– ما الذي تريده؟ !

تعجب طاهر من كلامها، قال بعد هنيهة :

– قلت لك.. أنني أريد رؤيتك !

قالت والعبرة تخنقها :

– ولكني لا أريد رؤيتك، سنتحدث غداً صباحًا، أريد النوم الآن !

لم يصدق طاهر ما يجري، أين لهفتها عليه؟ أين كلماتها الرقيقة؟ لماذا هذا التغير؟ قال لها بتأثر :

– هل تريدين مني أن أبقى واقفًا هنا حتى الصباح اتوسل إليك !

– أقسم بالله بأني لن أفتح باب الغرفة، فقد تكون مخمورًا ! !

ضرب طاهر الحائط بكفه بقوة وهو يقول :

– اللعنة !

هنا سمعت صوت عمها يصعد الطابق الثاني وهو يصرخ بالقول :

– ماذا تريد منها أيها النذل؟

صرخ طاهر في وجه ابيه :

– لماذا شوهت صورتي أمامها بهذا الشكل يا أبي؟ لماذا بربك ! متى أتيت إليك مخمورًا حتى تقول لها ذلك الكلام؟ !

– نعم لم تأتِ مخمورًا لكنك بنفسك قلت انهم يشربون الخمر وأنت معهم !

شعرت جنات بطمأنينة بعض الشيء، بقت تنصت لكلامهما حتى اشتد الموقف بينهما، ضرب الأب ولده وهو يقول له :

– أنت لا تستحقها أيها الجبان !

هنا اضطرت جنات إلى فتح الباب وهي تتوسل إلى عمها أن يكف عن إهانته، قالت وهي تسحب طاهر إلى غرفتها :

– الخطأ خطأي أنا يا عم . . كان يخاطبني بأسلوب هادئ وأنا من كنت أصرخ وأزعق في وجهه !

دخل طاهر الغرفة بينما سحب إحسان مفتاح الغرفة من الباب ودسّه في جيبه بإشارة من جنات !

قال لها طاهر بعد أن تأكد من أن والده قد نزل :

– اغلقي الباب بالمفتاح واجلسي لنتكلم بهدوء !

قالت وهي تخفي ابتسامتها :

– لقد أخذ المفتاح . .

– من ؟

– عمي . . من غيره !

– وهل فقدتِ ثقتكِ بي إلى هذه الدرجة بحيث أعطيته المفتاح ؟ !

– أولا هو من أخذه دون أن أعطهِ إياه ، وثانيًا نعم ثقتي بك لم تعد كالسابق !

– إسمعيني أرجوكِ . . بماذا أقسم لكِ بأني لم أتناول أي مُسكر طول حياتي !

نعم كنت اتعاطى المخدرات عن طريق الحقنة فترة قصيرة ثم تركتها ولله الحمد !

أما وقد فقدتِ ثقتكِ بي فهذا ما لا أطيقه ! ولهذا السبب سأرحل الآن !

قام من مكانه وكانت تتمنى جنات لو إنه بقى فترة أطول لعله يدافع عن نفسه أكثر فتعود الطمأنينة إلى قلبها المضطرب !

في الصباح كانت جنات هي من طرقت الباب على طاهر ، فتحها ليجد خطيبته أمامه وهي تحمل طعام الفطور بيدها ، قال لها مندهشًا :

– لأول مرة تأتين بالفطور لغرفتي !

قالت وهي تضع الطعام على الطاولة :

– عمي ما زال نائمًا وكرهت أن افطر لوحدي !

ابتسم طاهر وكأنه فهم ما كانت تصبو إليه ، كانت تريد أن تخبره بأن ثقتها به عادت كما كانت !

تناولا الفطور معًا ثم ابتدأ طاهر المحادثة :

– إنني أمر بظرف صعب يا جنات ، يوم أمس وبعد أن التقيت بأصحابي وفي طريق العودة ذهبت إلى حسينية قريبة منا وهي خاصة بالشيعة هنا ، دخلت وصليت فرضي المغرب والعشاء ثم عاهدت الله إن انقذني مما أنا فيه فسأبقى ملتزمًا بالصلاة وبكل فرض مدى حياتي ! كما وذكرت الإمام صاحب الزمان . . ألم تقولي هو وسيلتنا إلى الله ؟ وهو حي يسمع صوت بكاءنا ؟ لقد توسلت بهِ أن يرفع يده الشريفة بالدعاء لي . .

– ولكن ماذا تقصد بعبارة (إن انقذني مما أنا فيه) ؟

– لا أستطيع أن أخبرك الآن . . لكني فعلا محتاج إلى مساعدتك .

– تفضل !

– أتمنى أن تحدثيني عن (الصلاة) لأني لم أكن من المصلين سابقًا لكني ومنذ أن عرفتكِ قررت أن أصلي لعل الله يرزقني بك .

صاحت جنات بدهشة :

– ماذا؟ .. هل صليت لأجلي؟!

– نعم.. أقسم بروح والدتي!

– ولكن كيف ذلك يا طاهر.. هل تعلم ما هي الصلاة؟!

الصلاة هي الصلة بين العبد وربه، وأهم شيء فيها أن تكون خالصة لوجهه الكريم لا تريد بها سمعة طيبة أو شهرة بين الناس بأنك أصبحت من المصلين! أو أنك تصليها لأجل أن تُرضي والديك لا أكثر أو زوجتك أو أحد احبابك فهذا يعتبر من الرياء ولن يكون العمل خالصًا لله تعالى!

قال طاهر :

– هذا ما كنت أتمنى أن نتكلم فيه ليلة أمس لكنك لم تعطني فرصة!

– هل تعرف شيء؟

– ماذا؟

– أتمنى لو أن ماما تسنيم موجودة الآن، لكانت أوضحت لك كل شيء عن هذه الفريضة، لكن انتظر!

ركضت نحو الطابق الثاني ودخلت غرفتها، جلبت كتابًا ثم نزلت إلى حيث غرفة خطيبها، قالت وهي تعود للجلوس في مكانها :

– هذا الكتاب اشترته لي أمي قبل سفري، قالت بأنه سينفعني! ولقد كنت أقرأ فيه قبل أيام ووضعت بعض الإشارات على الأحاديث المهمة حول الصلاة.. استمع!

فتحت جنات الكتاب وصارت تقلب صفحاته وتقرأ :

قال تعالى في سورة المدثر (ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نكُ من المصلين)

وفي وسائل الشيعة عن الإمام الصادق عليه السلام : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أوصني! فقال صلى الله عليه وآله : لا تدع الصلاة متعمداً، فإن من تركها متعمداً فقد برأت منه ذمة الإسلام.

وقد جاء في كتاب المستدرك عن رسول الله صلى الله عليه وآله : ليس منا من استخف بصلاته، ليس منا من شرب مُسكراً، لا يرد عليَّ الحوض لا والله.

قال طاهر وهو يمد يده نحو الكتاب :

- ناوليني إياه أحتاج أن اقرأه من البداية.. اعتقد بأنه سينفعني كثيراً.

(١٣)

دخل طاهر غرفة جنات كالمجنون، اتجه إلى خزانة ملابسها وصار يبعثر الملابس هنا وهناك وهو يصرخ بلا وعي :

– يجب أن ترحلي ! لا يوجد هناك ما يدعوكِ للبقاء بعد اليوم !

كانت تنظر جنات إليه بدهشة، لأول مرة يدخل الغرفة من غير أن يطرق الباب !

سألته وهي لا تعرف ما الذي يجري :

– ولكن لماذا تريدني أن أرحل؟ هل جننت يا طاهر !

– لا لست مجنوناً بل أنا بكامل قواي العقلية لكني مريض يا جنات . .

مريض، هل تعين هذا ؟ !

جلس على ركبتيه وصار ينحب كالثكلى :

– لقد تأكدت الآن من نتائج التحليل . . إنني مصاب بمرض الإِيدز !

صرخت جنات وهي تقول :

– ماذا ؟ الإِيدز !

– نعم . . مرض العوز المناعي الذي ليس له علاج إلا الموت !

ركضت وأقفلت الباب وجلست أمامه وهي تبعد يديه عن وجهه وتقول :

– ولكن ما الذي تتفوه به ؟ ارجوك إهدأ يا طاهر وأخبرني ما الذي حدث ؟

نظر إليها بعينين محمرتين . . تكلم اخيراً :

– اتصل بي أصحابي قبل يومين وأخبروني بإن أحد مجموعتنا مصاب بهذا المرض، ولأننا كنا نستخدم نفس الحقنة عند أخذنا للمخدرات فهناك احتمال أن نكون مصابين نحن أيضًا بهذا المرض!

لهذا السبب تركت المنزل وخرجت لكني لم أشأ أن أخبرك في حينها وقلت لكِ بأني ذهبت لرؤية أصحابي، هل تذكرين؟ وهل تذكرين عندما أخبرتك بأني أمر بحالة صعبة كما انني عاهدت الله أن..

قاطعته جنات :

– هل هو هذا الأمر الذي كنت تدعو الله أن ينقذك منه؟!

– نعم.. كنت أخشى أن أكون قد أصبت بالمرض، وها أنا الآن استلم نتيجة التحليل!

– لكنك لم تخرج من المنزل؟ كيف عرفت النتيجة؟

– لقد جاء أحد أصدقائي بنتيجة التحليل، أخرجها من جيبه وهو يقول :

– هذه هي، انظري هذا اسمي وهذه النتيجة!

لم تصدق جنات بكل هذا، شعرت بأن الأرض بدأت تدور بها، سقطت مغشيًا عليها ولم تفتح عينيها إلا وهي في المشفى!

أدارت وجهها في أرجاء تلك الغرفة، فوجدت طاهر يجلس قرب رأسها وقد غسلت الدموع وجهه، أما عمها إحسان فكان يتكلم مع الطبيب حول إمكانية إخراجها من المشفى، وافق الطبيب وقام طاهر ليساعدها على النهوض بعد أن لملم أغراضها استعدادًا للخروج..

وفي السيارة كان إحسان يقود السيارة بينما جلس طاهر مع خطيبته في الخلف وهي تضع رأسها على كتفه والدموع تملأ مقلتيها، نظر إليهما إحسان عبر المرآة الأمامية وهو يقول :

– سأتصل اليوم ببهاء، يجب أن يأتي لينهي هذه المسألة ! رفعت جنات رأسها عن كتف طاهر وهي تقول :

– أي مسألة يا عم؟

قال وهو ينظر إليهما بحدة في تلك المرآة :

– اتتوقعان أنني لم أعلم بالأمر؟ لقد سمعت صراخ طاهر اليوم صباحًا وصعدت إلى غرفتك.. وقفت عند الباب وسمعت كل شيء !

نزلت دموعه وهو يتكلم بصعوبة :

– إنها عقوبة من الله لي على كل تقصيري تجاه ولدي الوحيد !

كان طاهر يستمع ودموعه هو الآخر تنزل من غير إرادته، أما جنات فقالت بصوت حزين :

– لن أصدق كل هذا.. طاهر سليم وهناك اشتباه بالموضوع ليس إلا !

وصل الثلاثة إلى المنزل، ساعد طاهر خطيبته في الصعود إلى غرفتها وهناك دار هذا الحديث بينهما :

– كنت أتأمل أن أكون مصدرًا لسعادتكِ يا حبيبتي، لكن القدر شاء غير ذلك !

وما أن أكمل طاهر عبارته تلك حتى تذكرت جنات تلك الرؤيا !

قالت وهي تمسك بيد طاهر وتمنعه من الذهاب :

– إجلس أرجوك . . أريد أن أخبرك بشيء تذكرته الآن !

جلس طاهر بجانبها وهو يقول بكل برود :

– خير إن شاء الله

– قبل أن تخطبني بليلة واحدة رأيت نفسي وكأني أريد أن أصعد مع شخص في سيارته وجئتَ أنت وسحبتني من يدي لتأخذني بعيداً وأنت تقول : شاء القدر أن تكوني لي ! نعم هذا ما قلته . . القدر ! هذه الكلمة التي تستخدمها أنت كثيراً ولم أكن أنا أعلم بذلك حينما رأيت تلك الرؤيا ! وهذا دليل على أن تلك الرؤيا صادقة ، والدليل الآخر على صدقها مجيئك أنت وعمي في الليلة التالية لخطبتي !

قال طاهر وهو ينظر إليها بحدة :

– ومن ذلك الشخص صاحب السيارة ؟

تلعثمت جنات قليلا ولم تحر جواباً ، أعاد عليها السؤال بصوت متقطع !

قالت بعد تفكير قليل :

– إنه ابن صديقة والدتي ، كان المفروض أن يعلن والدي موافقته عليه لكن مجيئك أنت في نفس ذلك اليوم حال دون ذلك !

– وهل يعني هذا إنه خطبكِ قبلي ؟

– نعم !

شعر طاهر بأن الدم صار يغلي في عروقه وهو يسأل :

– هل.. هل كان هناك شيء بينكما ؟

– لا.. لا.. صدقني !

– حسنًا اصدقك.. والآن ؟

– الآن ماذا ؟

– أقصد إن جاء عمي بهاء وأصرَّ على الانفصال ثم اخذكِ معه وعدتِ إلى أرض الوطن فهل ستقبلين بنفس ذلك الشاب ؟

– ولكن ما الذي تقوله أنت يا طاهر ! ومن قال لك بأني سأعود إلى أرض الوطن ! ؟

– ألم تسمعي كلام والدي، سيتصل بأبيكِ ليخبره بكل شيء !

قامت جنات من مكانها بسرعة وهي تصرخ :

– لا ! لن اسمح بذلك !

نزلت تركض نحو غرفة عمها فوجدته يجلس على سجادة صلاته وقد بللت الدموع وجهه !

انحنت على يديه تقبلها وهي تتوسل إليه بالقول :

– عمي أرجوك .. لا تخبر والدي بما جرى، سوف لن يبقيني هنا ولا ليوم واحد !

رفع إحسان رأسها بهدوء وهو يقول :

– لا تتوسلي يا ابنتي، لقد اتصلت وأخبرته بكل شيء، سيكون غدًا أو بعد غد عندنا !

صارت جنات تبكي وتلطم على وجهها وهي تردد :

– من قال لكم بأني اريد الرحيل؟ لماذا لا تفهمني أرجوك ، عمي أعد الاتصال الآن، أخبره إنك كنت واهمًا، أخبره أن هناك اشتباه بالموضوع..

عمي ارجوك !

دخل طاهر غرفة أبيه ، اتجه نحو جنات محاولاً تهدأتها لكنها كانت في حالة من الانهيار العصبي !

أعادها بصعوبة إلى غرفتها وهناك أخبرته بأنها لن ترحل، قالت وهي تمسك بيده وتتوسل :

– اذهب لإعادة التحليل أرجوك ، صدقني أنا أشعر بأنك سليم وبأن الأمر مجرد اشتباه.. أو قد تكون كذبة من أصدقائك لأنك تركتهم فجأة فأرادوا الانتقام منك !

– ما بكِ يا جنات.. هم أيضًا قد أصيبوا بالمرض، ثم كيف تكون نتيجة التحليل كذبة؟ هل أن الأمر بهذه السهولة التي تتصورينها !

– أنت لم تذهب بنفسك لأخذ النتيجة بل جاء بها أحدهم صحيح؟ قد يكون هذا الشخص مخادعًا وقد..

– وقد ماذا يا حبيبتي؟ ! لا يوجد أي خطأ في الموضوع ولا اي اشتباه، ذهبت قبل الآن وحللت في أفضل المختبرات، ثم أصدقائي أيضًا اشتبهوا بنتيجتهم؟ !

ألم نكن جميعًا نجلس ونحقن أيادينا بنفس الحقنة؟ هذه هي نتيجة أفعالنا السيئة، هذه هي نتيجة ابتعادنا عن ديننا يا جنات.. صدقيني!

لقد قرأت في كتابكِ الذي أعطيتني إياه حكمةً تصف حالتي الآن وهي (من لم يؤدبه الأبوان أدبه الزمان، ومن لم يؤدبه الزمان أدبه سهمٌ مسموم)..

خفض طاهر رأسه أرضًا وقد نزلت دموعه وهو يُكمل :

- وهذا هو السهم المسموم الذي سيجعلني مؤدبًا إلى الأبد!

- وهل يعني هذا بأنني لن أكون لك؟!

- نعم.. فهذا المرض يعني الموت، مناعتي الآن تتجه نحو الصفر ويعني أيضًا أنه أي التهاب وإن كان بسيطًا فسيقضي على حياتي! ثم إن تزوجنا فسينتقل المرض لكِ أنتِ أيضًا، وإن حملتِ فسينتقل لإطفالنا!

- لكني في تلك الرؤيا.. سمعت منك عبارة هي عكس ما يحدث الآن! لقد قلت بأن القدر شاء أن تكوني لي! فكيف يحدث هذا وكيف يمكن أن لا أكون لك.. كيف؟

- لا يمكن أن نبني حياتنا على أساس رؤيا.. يا جنات!

صاحت وهي تضرب على وجهها :

- وما الحكمة من وجودي بينكم إذن؟ هل جئت إلى هنا لأحبك وأتعلق بك ثم يأتي أبي ويعيدني إلى أرض الوطن لينتهي كل شيء!

لم يتكلم طاهر بغير لغة الدموع، قالت له وهي تعيد ملابسها إلى الخزانة بعد أن بعثرها سابقًا :

– لن أرحل وسأبقى بجانبك، لا يهمني إن كان هناك زواج أو لا ، المهم أن أكون بقربك وأنت تمر بهذه المحنة.. نعم لن أرحل!

ابتسم طاهر لأول مرة بعد سماعه خبر مرضه، قال وهو يساعدها بجمع أغراضها وإعادة كل شيء كما كان :

– لم أكن أتوقع إنكِ تحبيني إلى هذه الدرجة، أشكر الله على وجودك في حياتي فلولاكِ لكنت الآن قد انتحرت بدل من أن انتظر موتي ببطأ! اعتقد إن هذه هي الحكمة من وجودكِ بقربي الآن! نعم سوف لم يكن أمامي إلا الانتحار والذي سيجعلني أخسر الدنيا والآخرة!

نظرت إليه جنات بحدة وهي تقول بثقة :

– لن تموت.. سيكون الله معك وسأبقى أدعوه سبحانه ليحفظك، اهم شيء أن تكون لك إرادة بقدرة الله تعالى فهو القادر على فعل أي شيء، أوليس هو من يُحيي العظام وهي رميم؟!

أوليس هو من إذا أراد شيئًا إنما يقل له كن فيكون؟! الأمر يحتاج إلى قوة الإيمان واليقين المطلق بالله بالإضافة إلى الدعاء.. نعم الدعاء، ثم صارت تردد بصوتٍ شجي وهي تمسك بيد خطيبها :

حتى وإن بَدَت السماءُ بعيدةً

إنّ الذي فوقَ السماءِ قريبُ..

فارفع يديكَ إلى الإلهِ مُناجيًا

إنّ الجروحَ مع الدعاءِ تطيبُ..

(١٤)

بعد ثلاثة أيام من آخر إتصال حصل بين إحسان وبهاء كان الأخير قد شد الرحال مع زوجته إلى أوروبا ! !

إتجه إحسان لاستقبال أخيه وزوجته في المطار ثم قدم بهما إلى بيته . .

كانت جنات تجلس مع طاهر في غرفته عندما سمعت صوت عمها :

- جنات حبيبتي تعالي لتستقبلي والديك !

وما أن سمعت جنات كلامه هذا حتى تسمرت مكانها ، قام طاهر وهو يمد إليها يده ويقول :

- هيا غاليتي قومي لنسلم عليهما !

أمسكت بيده ثم سحبته للجلوس وهي تقول بحزن :

- هل تعلم ما معنى قدومهما ؟ سيجبرانني على الرحيل !

- وماذا نفعل الآن ؟ هل تريدين مني أن أهرب بكِ بعيداً كما يحصل في الأفلام والمسلسلات ؟ !

لماذا لا تصدقي بأن وجودكِ بقربي صار يشكل خطراً على صحتك !

قامت من مكانها وهي تمسح دموعها لتبدو قوية أمامهما . . اتجهت صوب غرفة الضيوف وهناك وما أن وقع بصرها على تسنيم حتى ركضت متجهة نحوها ودموعها تحكي لوعتها وعذابها !

ثم اتجهت نحو والدها سحبت يده وقبلتها وهو ينظر إليها بنظرة تحمل معانٍ كثيرة وكأنه يتوسل إليها أن تسامحه على موافقته على هذه الخطبة !

دخل طاهر وسلّم على عمه وزوجة عمه ثم جلس وهو مطأطأ الرأس !

قال بهاء وهو يشير لجنات بالجلوس بقربه :

– حبيبتي جنات يجب أن تتهيأي للرحيل معنا ، لا نستطيع أنا وأمك أن نبقى هنا أكثر من يومين بسبب بدأ الدوام في الجامعة وحتى أستطيع أن أحجز لك مقعداً دراسيًا في جامعاتنا يا نور عيني .

كانت جنات تنظر لطاهر ودموعها لا تتوقف ، كانت تتمنى لو يتكلم مكانها ، تمنت لو يقول لهم أنه زوجها شرعًا وهو لن يسمح لها بالذهاب ، لكنه كان صامتًا !

أجبرها صمته على الكلام :

– أبي أرجوك . . أنا لا أريد الرحيل .

تغيرت ملامح بهاء وشعر بأن ابنته تخشى خطيبها الذي قد يكون هدَّدها إن هي وافقت على الرحيل !

صاح بعصبية :

– ما معنى هذا ؟ وما معنى بقاءكِ عندهم ! هل تريدين أن أقف لأتفرج عليكِ وأنت تموتين أمامي بسبب هذا الحقير !

قامت جنات من مكانها واتجت لتجلس بالقرب من طاهر وهي تمسك بذراعه وكأنها تستنجد به من ابيها !

قالت وقد شعرت ببعض القوة :

– لا ليس كذلك ! اسمح لي بالكلام يا أبي أرجوك دون عصبية منك ! أبي الحبيب لو كنت تمر في محنة وشدّة فهل ستتركك أمي تعاني لوحدك ؟ إن خطيبي يمر الآن بمحنة صعبة جداً لا أعرف هل سينجو منها أم لا . . كيف أتركه لوحده وأذهب هكذا وبهذه السهولة ؟ !

وضعت كفيها على وجهها وصارت تبكي بقوة وهي تتوسل لأبيها بالسماح لها بالبقاء !

كانت النظرات تتبادل بدهشة بين الزوجين وهما يشاهدان ابنتهما بهذا الموقف الصعب ، قال بهاء وقد شعر أن صوت جنات صار يقطع نياط قلبه :

– ولكن يا ابنتي هل تعرفين خطورة بقائك بقربه ؟ أنتِ تعرضين نفسك للموت !

– أبي صدقني طاهر إنسان محترم ويعرف تكليفه الكامل تجاهي . . و

لم يدعها الأب تكمل كلامها قال وهو يبتسم بسخرية :

– محترم ؟ ولكن أي إحترام هذا وهو لم يحترم نفسه حتى ! من أين أتاه هذا المرض ؟ لو لم يكن يأخذ المخدرات لما حصل له ما حصل ! وأنا عتبي على أخي الذي أتى ليخطب ابنتي دون أن يخبرني بكل هذه الأشياء السيئة عن ابنه !

تكلم إحسان بصعوبة :

– لقد ترك طاهر هذه الأمور منذ زمن صدقني !

قرر طاهر أن يتكلم فما عاد يحتمل :

- عمي اسمح لي أن أقول لك إنه حتى أنت الآن معرض للإِصابة بالإِيدز، لأنه لا يأتي فقط من العلاقات اللاشرعية أو من حقن المخدرات بل يمكن أن ينتقل لأي إنسان عن طريق الأدوات الجارحة إذا كانت ملوثة بهذا الفايروس ! ولهذا أيضًا قد انتشر كثيراً حتى في المجتمعات المحافظة والدول الإِسلامية !

قال بهاء بعصبية :

- لا يهمني كيف ومتى وأين ينتقل وينتشر هذا المرض، الذي يهمني الآن هو صحة ابنتي فقط !

عادت جنات لتمسك بذراع طاهر وهي تبكي كالطفلة الصغيرة التي ضاعت وسط الزحام ! !

خاطبها بهاء بهدوء :

- ولماذا البكاء يا حبيبتي . . هناك في بلدنا ستعيشين في أمان والمستقبل ينتظرك . . صدقيني !

- لكن يا أبي ألم ترسلوني إلى هنا حسب رغبتكم؟ والآن تأتون لتأخذوني حسب رغبتكم أيضا؟ هل ديننا يقبل بكل هذا؟ لماذا لا تعطون لبناتكم حرية الاختيار؟ لماذا دائما يكون رأيكم هو الصائب . . لماذا؟

اتجه إليها والدها وقد رفع يده ليضربها، قام طاهر ووقف في وجهه وقد أمسك ذراع عمه وهو يقول :

- لا يا عمي . . إلى هنا وكفى ! لن أسمح لك بضربها !

حاول بهاء أن يبعده عن طريقه فلم يستطع، ركضت جنات وارتمت في حضن تسنيم وهي تتوسل إليها :

– أرجوكِ يا أمي.. قولي شيئًا بالله عليكِ !

قامت تسنيم من مكانها والدموع قد غسلت وجهها هي أيضا، أخذت جنات إلى خارج غرفة الضيوف وهي تقول لها :

– أين هي غرفتكِ.. دعينا نذهب إليها يا حبيبتي.

صعدت جنات مع أمها إلى الغرفة، وما أن دخلت تسنيم تلك الغرفة حتى أدهشها جمالها وترتيبها، لاحظت اسم جنات بالورق الذهبي على الجدار فقالت :

– ما أجملها؟ هل هذا ذوق طاهر؟

– نعم يا ماما، أنا أيضًا تفاجأت مثلكِ تمامًا لقد أعدَّ لي كل شيء حتى قبل أن يتأكد من موافقتي عليه !

أكملت وهي تمسح دموعها :

– لقد رأى صورتي وأنا ارتدي العباءة، يقول إن اكثر ما جذب انتباهه طريقة امساكي بالعباءة وكيف ألفها على وجهي بشكل عفوي و..

– وماذا أكملي !

– يقول طاهر بأنه شعر بنور الإيمان في وجهي ! وعلى هذا الأساس قرر خطبتي لأنه يستشعر الإيمان في داخله منذ الطفولة لكن إهمال عمي له جعله يتخذ أولئك الأصحاب !

هل تعلمين يا ماما انه لم يكن يصلي إلا بعد أن تعرف عليَّ ! حتى أنه طلب مني أن أكلمه عن الصلاة وأهميتها ، ثم أخذ مني الكتاب الذي اشتريته لي قبل سفري وهو الآن يقرأ فيه . .

ارجوكِ ماما حاولي إقناع والدي بأن ابقى مع طاهر ، صدقيني أنه بحاجة إلى وجودي ، لقد قال لي بأنني لو لم أكن بقربه الآن لاتجه إلى الانتحار بعد سماعه خبر مرضه !

أمسكت تسنيم بيد جنات وهي تقول :

– لقد حاولت إقناعه صدقيني وأخبرته بأنك متعلقة بطاهر جداً . . لكنه رفض رفضًا قاطعًا فهو يشعر بتأنيب الضمير حينما أرسلكِ إلى هنا بكل هذه السهولة !

– ولكن يا ماما . . كيف سيكون مصير خطيبي ؟ انا أخشى أن تجعله الوحدة ووساوس الشيطان يقترف أمراً خاطئًا يؤدي بحياته لا سمح الله !

قالت تسنيم وهي تربت على كتفها بهدوء :

– اتركي أمر طاهر لي . . أنا سأكلمه وسوف لن نقطع تواصلنا معه ، نعم سوف يكون بخير . . صدقيني !

هيا لنعود الآن . . ونرى إلى أين ستؤول الأمور بين والدك وخطيبك !

وأثناء نزولهما إلى الطابق السفلي سمعت جنات صوت طاهر وهو يصرخ بقوة :

– سمحت لك أن تأخذها نعم . . لكني لن أطلقها يا عمي . . هل سمعت ؟ !

جاءه صوت بهاء أكثر حدة وتعصب :

– ولمَ لا تطلقها . . أنت ستبقى على مرضك فهو ليس من الأمراض القابلة للعلاج ! هل تريدها أن تبقى مخطوبة لك طول حياتها ؟ !

دخلت جنات الغرفة وهي تقول بكامل الثقة :

– نعم يا أبي . . إن لم يشفَ طاهر من مرضه فلن اتزوج لأني لن أقبل بغيره على الإطلاق !

ثم أكملت بحزن بان واضحًا على صوتها :

– عن إذن طاهر وبعد السماح لي طبعًا فسأعود معكم إلى أرض الوطن على أن أبقى متواصلة معه عبر الهاتف والإنترنت وهذا شرطي الوحيد . . أرجو أن تعدني يا أبي بعدم منعي من التواصل معه فهذا أقل ما يمكنني أن أقدمه له في محنته هذه إلى أن يأذن الله لنا باللقاء .

(١٥)

في اليوم الثاني من تواجد تسنيم وبهاء في منزل إحسان قال الأخير لتسنيم وهو يستأذنها في الحديث :

– اسمحي لي يا أستاذة وبحكم درايتك وحكمتك التي كلمتنا عنها جنات كثيراً . . فأنا أتمنى أن أسألك حول أمر بات يؤرقني !

– خير إن شاء الله . . تفضل يا أبا طاهر ؟

– زاد الله من فضلك أستاذة . . بخصوص ولدي طاهر وما حلَّ بهِ من مرض خطير جداً هل . . هل سيحاسبني الله برأيكِ عن كل ما جرى له ؟

– أنت ماذا ترى ؟ أقصد بماذا تشعر ؟

– أشعر بأنني سأحاسب على ذلك بسبب تقصيري في تربيته !

كان من المفترض أن أعتني بتربيته أكثر ، ماتت والدته وتركته أمانة في رقبتي ، لكن انظري . . ماذا فعلتُ بالأمانة ؟ !

– اسمعني يا أبا طاهر ، إن أبنائنا أمانة – الله – عندنا قبل كل شيء ، وبهذا يجب أن نعرف كيف نتصرف معهم وكيف نراقب أحوالهم من دون أن يشعروا بمراقبتنا ، نعم علينا أن نعرف مع من يلتقون وأي أصحاب لديهم ومن أي نوع هم ، وخاصة في وضع مجتمعاتنا هذه وما انتشر فيها من مفاسد !

استمع إلى هذه الحادثة التي وقعت في زمن الرسول عليه وعلى آله آلاف التحية والسلام ، وذكرت في كتاب جامع الأخبار وفي مستدرك الوسائل :

(رأى رسول الله " صلى الله عليه وآله" أولاداً يلعبون فقال لأصحابه : ويلٌ لأولاد آخر الزمان مِن آبائهم ، فقيل : يا رسول الله مِن آبائهم المشركين؟ فقال : لا ، مِن آبائهم المؤمنين ..) .

برأيك يا أبا طاهر .. لماذا يتوعد الله الآباء المؤمنين بالويل؟

طأطأ إحسان رأسه ولم يحر جوابًا بينما أكملت تسنيم :

– ما أن نقرأ الحديث حتى يتبادر إلى ذهننا التقصير الذي يقع فيه آباء وأمهات هذا الزمان تجاه أبنائهم، والغفلة التي تعيشها عوائلنا تجاه الخطر الذي يداهم الأبناء والبنات والفتن التي تحيط بهم من كل جانب !

قال إحسان :

– نعم والله.. وكأن هذا الحديث يخصني أنا بالذات ! لقد حاولت أن أحصن نفسي من مفاتن المجتمع لكني غفلت عن تحصين ولدي ومتابعته ! !

في فترة المساء وبينما كان طاهر مستلقيًا على سريره طرقت تسنيم باب غرفته..

جاءها صوته : تفضل !

دخلت تسنيم فنهض طاهر مسرعًا وهو يستقبلها، سحب لها الكرسي لتجلس وهو يقول :

– أهلا بكِ عمتي.. تفضلي بالجلوس !

– لقد جئت لأحدثك بأمر هام يا ولدي..

– نعم يا عمتي، أنا أيضًا كنت أريد أن أتحدث إليك في موضوعي، ابدأي أنتِ أولا وكلي آذانٌ مُصغية!

– إن جنات قلقة بشأنك فهي لا تريد مفارقتك خوفًا من أن تُقدِم على الانتحار!

– نعم يا عمتي لا أخفي عليك ذلك.. لكني وبعد أن أخذت ذلك الكتاب منها وصرت اقرأ فيه ارتفع عن عيني ذلك الغشاء وصرت أبصر اموراً كثيرة!

– جميل جداً يا ولدي، وما أكثر ما شدّك إليه؟

– لقد تأثرت به بصورة عامة لكن هناك قصة أو حادثة لم أستطع أن اقرأها ثم أعبرها عبور الكرام ولقد عدتُ مِراراً وتكراراً لقراءتها!

– وما هي أخبرني بها يا طاهر؟ لقد صار لدي فضول شديد لمعرفتها!

– إنها عن أحد الشباب في زمن رسول الله واسمه جعفر الطيار!

– وهل تعرف من هو " جعفر" هذا يا طاهر؟

– نعم إنه ابن عم الرسول وأخ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

–حسنًا.. أكمل! ما هي تلك الحادثة؟

– ورد في كتاب بحار الأنوار عن الإمام الباقر عليه السلام إن الله تعالى أوحى إلى رسوله : إني شكرت لجعفر بن أبي طالب أربع خصال، فدعاه النبي صلى الله عليه وآله فأخبره فقال : لولا أن الله تعالى أخبرك ما أخبرتك! ما شربت خمراً قط لأني علمت إن شربتها زال عقلي، وما كذبت قط لأن الكذب

ينقص المروءة، وما زنيت قط لأني خفت إني إذا عملت عُمِل بي، وما عبدت صنمًا قط لأني علمت أنه لا يضر ولا ينفع، فضرب النبي صلى الله عليه وآله بيده على عاتقه وقال : حقٌّ لله عز وجل أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة !

– ما أجملها من رواية ! فعلا إنه مثال للشاب العاقل الذي يدرس الأمور جيداً قبل أن يقدم على فعلها .

– لكن يا عمتي فقرة واحدة لم افهمها !

– أهاا . . وما هي يا ولدي؟

– الفقرة الخاصة بالزنا ! ماذا كان يقصد منها ؟ !

– أنه يقصد أن الزاني والعياذ بالله سيأتي يوم ويفعل رجل آخر بعِرضه ما فعله هو بعِرض غيره . . إن لم يتب ويندم !

اسمع ما قرأته عن هذا الأمر وهو حقًا من أجمل ما قرأت :

" كما تدين تُدان " . . . خبئ هذا النص في رفوف غفلتك للأيام القادمة، و سيخبرك الزمن عنها حتماً . . إن لم يكن بنفس الموقف فسيكون بنفس الألم، فالشعور الذي تتركهُ في صدرِ أحدهم سيضعُ الله في صدرك شعوراً مثلهُ تماماً ! فلا تمدَّ لغيرك سوى ما تحبُّ أن يمدَّ لك !

وجاء عن إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام الكثير من الأحاديث التي تثبت لنا ذلك منها (من طرق باب الناس طُرقت بابه) وكذلك قوله (عفّوا عن نساء الناس تعفُّ نساؤكم) وقوله عليه السلام (ما زنى غيورٌ قط) وهذا

يعني أن من يغار على نساءه سواء البنت أو الأخت أو الزوجة وحتى الأم فإنه سيعف عن نساء الناس ولا يتعدى عليهن لا بالنظرة المحرمة ولا بغيرها !
أما وإن ظل يرسل عينيه وهواه حيث يشاء فيقع في الحرام والعياذ بالله حينها لا يأمن على أهله من أي أحد ! !
ولن يحصل كل هذا في حالة توبة ذلك الرجل وندمه ومعاهدة الله على عدم التعدي على أعراض الناس لا بالزنا ولا بالنظر الحرام.
– حسنًا عمتي أشكر لك كل هذا التوضيح، لنعد الآن إلى موضوعي !
– نعم يا ولدي..
– هل هناك أمل بأن الله سيغفر لي ما كنت اقترفته في حق نفسي ! ! ضعي في بالك يا عمتي إنني لم أقرب الزنا ولا شرب الخمر طيلة حياتي وأقسم بالله على ذلك.
قالت تسنيم بابتسامة جميلة :
حتى وإن كنت فعلت هذين الأمرين القبيحين والذين يعتبران من كبائر الذنوب.. فسيغفر الله لك يا ولدي !
ألم تسمع قوله تعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يُشرك به) ؟
– ونعم بالله يا عمتي.. حقيقة إن أشد ذنوبي هو تركي للصلاة ومداومتي لفترةٍ ما على مصاحبتي لصحبة السوء مما حدى بي إلى مشاركتهم في تعاطي المخدرات ! لكني تركت كل ذلك حتى قبل أن أعرف بمرضي هذا !

اكمل طاهر وهو يضع يديه على رأسه وقد طأطأه أرضًا من شدة الألم والحسرة :

– إنني أشعر الآن بما تحكي عنه تلك الحكمة والتي تقول (من المؤلم أن تشعر بأنك خسرت أشياءً كثيرة لم يعد عمرك يسمح باسترجاعها) .

لمحت تسنيم تساقط الدموع من عيني طاهر رغم أنه كان خافضًا رأسه محاولاً إخفاءها عنها !

قالت وهي تحاول أن تزرع الأمل في قلبه من جديد :

– اسمعني يا طاهر . . ما زال لديك وقت يا ولدي لتتوب إلى الله من كل ما كنت فيه من تقصير وذنوب ، فلقد جاء في أصول الكافي عن إمامنا الباقر عليه السلام (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) . . وسيكون طريق التوبة أسهل وأيسر لك حينما تسمع نداء الله لنا في سورة النور (وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تُفلحون) .

كان طاهر يستمع إلى هذه الكلمات وكأنها تنزل على صدره كالماء البارد الذي يّثلج الصدور في يوم شديد الحرارة ! !

نعم هذا ما كان يشعر به ، وأكثر ما أثلج صدره هو صوت تسنيم وهي تردد على مسماعه قوله تعالى في سورة آل عمران . .

((والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون ،

أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونِعمَ أجر العاملين)).

(١٦)

عاد التئام شمل الأسرة من جديد بعد عودة جنات إلى أرض الوطن، في هذه الأيام كان (علي) يلح على أبويه لخطبة جارتهم (عذراء) . .

وفي أول ليلة لتواجد جنات معهم وبعد أن انتهوا من طعام العشاء، تحدث علي قائلا :

- والآن يا أبي . . ها هي جنات بيننا وقد عادت لتستقر معنا بالسلامة، ما هي حجتكم الآن ؟ متى تذهبون أنت وأمي لخطبة عذراء ؟

قال بهاء بغضب :

- متى تتأدب عند كلامك معي ؟ ما معنى قولك " ما هي حجتكم الآن" ؟ !

- لكنك يا أبي في تلك الأيام كنت تتحجج بأختي جنات ومشكلتها مع خطيبها، والآن انتهت المشكلة ! ما الذي ننتظره حتى نتقدم لخطبة تلك الفتاة ؟ هل ننتظر أن يخطبها شخصٌ آخر ؟ !

عاد صوت الأب ليرتفع :

- لقد أخبرتك بأن أهلها لم يقبلوا بك ! فأنت لست من السادة الأشراف !

- ولكن يا أبي بربك . . أنت تعتمد على كلام الجيران ! ما الذي تخسرانه إن ذهبتما بنفسيكما لخطبتها ؟

نظرت إليه تسنيم وهي تقول :

- إنهم من السادة يا ولدي والجميع يعرف عنهم انهم لا يزوجون بناتهم إلا من السادة ! !

سألت هبة بتعجب :

– وهل جميع السادة هم هكذا يا ماما ؟

– لا يا حبيبتي . . لكن بعضهم للأسف هذا تفكيرهم !

وفي غرفة الزوجين قالت تسنيم :

– عزيزي بهاء أتمنى أن تفسح لي المجال للتحدث إليك بخصوص علاقتك مع الأولاد !

– وما بها علاقتي معهم ؟

– أنا أعرف أن مسؤوليتهم كبيرة وصارت تزداد يومًا بعد يوم وهذا ما يجعلك في ضيق وتفكير مستمر بأمر المعيشة لكني أحببت أن أذكرك بهذا البيت الشعري الذي يُنسب للإمام علي عليه السلام حيث يقول :

لا تكن للعيش مجروح الفؤادِ . .

إنما الرزق على رب العبادِ

أجابها بهاء قائلا :

– وهل ساءت أخلاقي مع أولادي إلى هذه الدرجة حتى صرتِ تتكلمين معي بهذا الكلام ؟ !

– بل قصدت العصبية والغضب السريع الذي لا يليق بك كمؤمن ، فلقد عرفتك إنسانًا متدينًا تحب الالتزام بشرائع الله تعالى فلماذا تفسد إيمانك بسبب هذه العصبية المفرطة ! ؟

- ومن قال إن العصبية والغضب يفسدان الإيمان؟!

- إنه رسول الله.. نعم فلقد جاء في أصول الكافي عن نبينا محمد صلى الله عليه وآله قوله :

((الغضب يُفسد الإيمان كما يُفسد الخل العسل!))

كما جاء في الخبر عن رسول الله " صلى الله عليه وآله" أنه مر بقوم يرفعون حجراً فقال : ما هذا؟

فقالوا : نعرف بذلك أشدنا وأقوانا، فقال : ألا أخبركم بأشدكم وأقواكم؟

قالوا : بلى يا رسول الله، قال : أشدكم وأقواكم الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحق، وإذا قدر لم يتعاطَ ما ليس بحق".

- ولكن متى أخرجني غضبي من قول الحق؟

- أنا أعرف أنك لا تحب الباطل أبداً، وحتى عندما تكون غاضباً تحاول أن تفرض ما هو صحيح.. لكن الأسلوب الذي تتبعه مع الأولاد يجعلك تتبع الباطل من حيث لا تدري!!

- وكيف ذلك؟

- ألا تلاحظ أن أسلوبك معهم يختلف عن أسلوب أهل البيت عليهم السلام مع أتباعهم!!

- وكيف ذلك؟ اوضحي لي قصدك؟

- إن أسلوبهم اللين والهدوء، وهو أيضًا اسلوب الأنبياء قبلهم فحتى فرعون لم يرضَ الله أن يعامله النبي موسى عليه السلام بغير اللين ! ! فعندما أراد موسى عليه السلام أن يذهب مع أخيه هارون إلى فرعون قال لهما رب العزة (فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى) فإن كان فرعون بجبروته وطغيانه يفرض الله أن نعامله باللين لعله يتغير . . فكيف بأولادنا وفلذات اكبادنا ؟

إن علينا أن ننتقد أولادنا بل أي شخص آخر نقداً سليمًا ولدينا في أئمتنا عليهم السلام عبرة وموعظة، فلقد جرى حوار بين الإمام موسى الكاظم عليه السلام وأحد أصحابه المعروفين وهو (صفوان الجمّال) والذي كان يؤجّر جماله إلى هارون الرشيد فقال له الإمام عليه السلام :

- كل ما فيك حسن ما خلا خصلة واحدة !

فتوجه صفوان بكل مشاعره لهذه الخصلة قائلا : وما هي يا مولاي ؟ فقال عليه السلام : اكراؤك الجِمال من هذا الرجل (ويقصد هارون) .

فاللافت هنا أن الإمام الكاظم عليه السلام ابتدأ نقد صفوان بطريقة لطيفة ورقيقة لم يشعره معها بالحرج، بل بالعكس تفتحت مسامعه كلها للاستماع !

ومثل ذلك نقد الإمام الصادق عليه السلام لشخص اسمه الشقراني حيث قال له الإمام :

– الحسن من كل أحد حسن وإنه منك أحسن لمكانك منا ، وأن القبيح من كل أحد قبيح وأنه منك أقبح لمكانك منا ! !

صمت بهاء ولم يُعقب على كلامها ، قال بعد هنيهة وهو يستعد للنوم :

– بخصوص علي وخطبته لتلك الفتاة ، لقد قررت أن أذهب غداً لخطبتها لهُ بإذن الله تعالى .

في منزل السيد أبو عذراء كان بهاء وعلي يجلسان في غرفة الضيوف وهما يستمعان لرد والد الفتاة التي جاؤوا لطلب يدها . .

اعتدل السيد أبو عذراء في جلسته وهو يقول :

– لكننا لا نزوج بناتنا إلا للسادة ! ولو كان ولدكم علي سيّداً لأعطيناه العلوية بعباءتها دون أي شروط !

قال بهاء وقد شعر بالنار تجري في عروقه :

– ولكن هل عندكم دليل على أن (السيد) هو فقط من كان نسبه يعود لرسول الله فقط ؟ !

قال أبو عذراء وقد اختفت ابتسامته :

– وهل هناك شك في هذا ؟ وهل تريد التقليل من شأننا بسؤالك هذا ؟

– لا يا أبا عذراء لكني لا أريد من كلامي هذا إلا أن أذكركم بكلام جدكم وحبيبنا رسول الله صلى الله عليه وآله والذي جاءنا عن طريق القرآن الكريم

حيث يقول تعالى على لسان رسوله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . .فالذي يجعل الإنسان سيّداً يا أبا عذراء ليس النسب بل التقوى ومخافة الله !

كما أحببت أن أذكركم بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله : من جاءكم ترضون دينه وخلقه فزوجوه، وإن لم تفعلوا تكن فتنة وفساد كبير !

ولم يقل من جاءكم ترضون نسبه ! !

قال أبو عذراء محاولاً إنهاء الموضوع :

- كلامكم على العين والرأس لكني غير قادر على مخالفة الأعراف في عائلتنا . . اعذروني !

قال بهاء وهو يقوم من مكانه مستعداً للرحيل :

- إنك بهذا تظلم ابنتك أكثر من ظلمك لإبني ! فأم علي استاذة جامعية كما تعلم وستبحث له عن أفضل طالبة في الجامعة من ناحية الأخلاق والالتزام، أما ابنتك فمن يضمن لك بأن هناك (سيداً) متديناً وخلوقًا سيتقدم لخطبتها ؟ أم انكم ستزوجوها لأي سيد يتقدم لخطبتها حتى وإن كان إنسانًا غير مستقيم ! !

لم يتفوه ابو عذراء بأي كلمة، غير أنه مدَّ يده لمصافحة بهاء وعلي وهو يتمتم بكلمات التوديع والسلام ! !

قبل أن ينام في تلك الليلة أخبر بهاء زوجته بشعوره الحقيقي تجاه كل ما يحدث في عائلته !

قال بصوتٍ كئيب :

– أظن أن ما نمر به بشأن جنات وعلي وما حصل في مسألة خطوبتهما ما هو إلا عقاب إلهي بسبب رفضي لإيهاب !

– ولكن لماذا تقول هذا يا بهاء ؟ !

– كيف لماذا . . ألم تخبري الأولاد في إحدى الجلسات بأن الحديث القدسي يذكر لنا بأن الله عند المنكسرة قلوبهم ؟ !

ولكن . . ألم أكسر قلب ذلك الشاب حينما رفضته بتلك السهولة ؟ انظري كيف كسر الله قلبي بأولادي ! !

قالت تسنيم وهي تحاول أن تهدأ من روع زوجها :

– إطمأن يا أبا علي . . سأسعى بكل ما استطعت من قوة بأن أجد لإيهاب أفضل فتاة في الجامعة وكذلك ولدنا علي سأقنعه بأن يترك أمر خطبته لي ، وأدعو الله أن يهيأ لنا من أمرنا رشدا .

(١٧)

ها هي جنات تبدأ حياتها الجديدة من خلال التحاقها بالجامعة وقد كانت تخشى الاختلاط بالطالبات خوفًا من أن يسألنها عن خطيبها ما إن يشاهدن خاتم الخطوبة في يدها !

لم تعتد جنات على الكذب ولكن ماذا إن حصل وجاءت إحداهن لتسأل ؟ ! لذلك حاولت فتاتنا أن تلتزم بوصية والدها بأن تكثر من الجلوس في مكتب تسنيم بين المحاضرة والأخرى !

وفي إحدى المرات وبعد أن انتهى الأستاذ المحاضر من إلقاء محاضرته وبينما كانت تتهيأ جنات للخروج من القاعة فاجأتها إحداهن !

– مرحبًا عزيزتي . . أنا (أريج) وهذه صديقتي (إيثار) ونتمنى أن تكوني الفتاة الثالثة في حلقتنا ! فهل تقبلين الصداقة ؟

ارتبكت جنات ولم تحر جوابًا !

قالت إيثار بإبتسامة جميلة :

– لقد أحببنا أن نتشرف بصداقتكِ ليس لأنكِ ابنة الأستاذة تسنيم والأستاذ بهاء بل لأننا نراكِ أهلاً للصداقة . .

ابتسمت جنات وهي تخفض رأسها حياءً وتقول :

– أخجلتما تواضعي . . !

مدت جنات يدها لإلقاء التحية عليهما ثم أشارت إليهما بالجلوس قربها . .

قالت أريج بكل أدب :

– لقد قررنا طلب صداقتك لأننا نجدكِ تشبهيننا كثيراً بطريقة حجابك وطريقة تعاملك مع الأساتذة والطلبة !

أما إيثار فقالت :

– نحن هنا كالغريبتان والفتيات لا يحبذن الاندماج معنا بسبب ارتداءنا للعباءة . . أظن انهن يعتبرننا معقدات ! ! لذلك ارتأينا أن نتقرب منكِ فأنتِ الوحيدة التي تشبهنا في إرتداءكِ للعباءة الزينبية .

ابتسمت جنات وهي تقول :

– أنا أتشرف بكما ، أما عن نظرة بقية الطالبات لنا فقد تتغير بمرور الوقت وسيعرفن أن صاحبة العباءة هي إنسانة طبيعية جداً . . !

رددت الفتاتان :

– بإذن الله تعالى . . ندعو أن يكون ذلك قريبًا .

سألتها أريج :

– نراكِ ترتدين خاتم الخطوبة . . صحيح ؟ !

ابتلعت جنات ريقها بصعوبة وهي تردد مع نفسها : هذا ما كنت أخشاه !

أجابت بعد هنيهة من الصمت :

– نعم . . !

سألت إيثار بفضول :

– وهل هو غريب أم قريب ؟

– إنه إبن عمي . .

شعرت جنات أن هناك لهفة من الفتاتين لمعرفة كل شيء عن خطيبها ، فلن يكن في مقدورها إلا إعطاء صورة موجزة عنه !

– اسمه طاهر . . يعيش في أوروبا ، ذهبت إلى حيث يعيش فترة من الزمن حيث كان من المفترض أن أكمل دراستي الجامعية بقربه ، لكني لم أستطع تقبل وضع الجامعات هناك وعدت مرغمةً إلى أرض الوطن !

تساءلت الفتاتان وبصوت واحد :

– مرغمة ؟ !

– نعم . . ارغمتني الأوضاع المنفلتة – أخلاقياً – على العودة للدراسة هنا ، وما أن أكمل الأربع سنوات حتى أعود إلى حيث خطيبي بإذن الله !

كانت جنات تتحدث وكل فرائصها ترتجف ، فهي غير معتادة على الكذب مطلقًا ، وحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن يكون كلامها أقرب إلى الواقع . . هذا ما جعلها مرتبكة جداً .

سألتها أريج بشيء من الخجل :

– وهل تحبان بعضكما ؟

دمعت عينا جنات وهي تجيب بابتسامة رقيقة :

– نعم . . وأكثر مما تتصوران !

في المنزل . .

أخبر بهاء ابنته الكبرى بأنه قد اختار لها (إيهاب) ليكون سائقها الشخصي طوال فترة دراستها في الجامعة !

لم تتكلم جنات بشيء إذ لم يعد يهمها أمر ذلك الشاب مطلقًا لكنها فكرت أن هذا الخبر قد يُغضب طاهر . . فهو لا يطيق سماع إسم إيهاب منذ أن عرف بخبر تلك الخطبة ! !

قررت أن تخبره في اتصال هذه الليلة عن تطور الأحداث فقد يغضب منها كثيراً إن هو علم بهذا الخبر من شخصٍ آخر !

وأثناء ذلك الاتصال الهاتفي الذي يتكرر كل ليلة منذ فراقهم . . قالت جنات :

– أريد أن أخبرك أمراً يا طاهر . . لكني خائفة من ردة فعلك !

– خير إن شاء الله ؟

– صحيح أنني أدرس في نفس الجامعة التي يعمل فيها أبي وأمي كأستاذين جامعيين لكن أبي لا يريدني أن ارتبط بهما من ناحية وقت دخولي أو خروجي إلى الجامعة فهما في أكثر الأحيان يتواجدان فيها حسب وقت وعدد المحاضرات الخاصة بهما !

– حسنًا وأين المشكلة يا حبيبتي ؟

– لا توجد مشكلة بإذن الله ، لكني أحببت أن أخبرك بأن والدي اختار لي (إيهاب) ليكون سائقي الشخصي فهو أكثر شخص يمكن أن يثق به !

صاح طاهر من غير إرادته :

– ماذا ؟ إيهاب !

تلعثمت جنات قليلا وهي تقول :

– أرجوك يا نور عيني.. حاول أن تتفهم وضعي !

جاءها صوته متوتراً :

– هل مات جميع سائقي الأجرة عندكم بحيث لم يبقَ إلا إيهاب ذاك ؟ أم هل تريدين إقناعي بأنه لا يوجد أي شخص – ثقة – من معارفكم ليقوم بهذه المهمة !

لم يعطها فرصة للكلام، قال وهو يستعد لإغلاق الهاتف :

– أنا سأتصل بعمي وأخبره برفضي القاطع، وإن أصر على إختياره ذلك فسأجبرك على ترك الدراسة !

قالت جنات وقد صارت دموعها على وشك الانهمار :

– لكن أبي لن يرضخ لطلبك وستكون هذه حجته للسعي في انفصالنا عن بعضنا وإلى الأبد !

أكملت جنات وهي تحاول أن تقلل من الغضب الذي صار يضرب بكيان خطيبها طاهر :

– لا تتصل بأبي أرجوك .. وأعدك بأني سأبحث عن طالبة أخرى لتركب السيارة معي يوميًا حتى لا أبقى مع إيهاب لمفردي !

– وإن لم تجدي طالبة أخرى هل ستخبرين والدك بضرورة استبدال السائق؟ !

– نعم.. أعدك !

تنفس طاهر الصعداء وهو يقول :

– أنا أعلم إنكِ انسانة عاقلة وملتزمة لكن خوفي ينبع من عدم معرفتي بذلك الشاب، وخاصة أنه تقدم لخطبتك سابقًا !

– نعم.. نعم أعرف ذلك يا عزيزي ولهذا أخبرتك.. لأني خشيت إن علمت بعد فترة قد تؤنبني بشدة !

– نعم أحسنتِ الصنع.. هذا هو ظني بكِ غاليتي، دعينا الآن من هذا الموضوع ما دمنا توصلنا إلى حل مناسب بإذن الله..

قالت جنات وقد ارتاحت لعودة الهدوء إلى خطيبها :

– أخبرني كيف هو حالك هذه الأيام؟

أجابها طاهر :

– لا أعرف حقًا أفكر أن أترك الجامعة !

– ماذا ؟ ولكن ما السبب ؟

– وهل أضمن أن أعيش إلى أن اتخرج وأعمل . . أنا ما زلت في المرحلة الثانية !

– ولكن هذا عكس إتفاقنا يا طاهر ! لقد وعدتني أن تكون إنسانًا قويًا ، ألم تعدني بذلك ؟

– ولكن يا جنات . . لا أشعر بأن لي هدف من هذه الحياة !

– أرجوك يا عزيزي . . لا تقل هذا الكلام ، استمر بالذهاب للجامعة فالعلم مفتاح كل خير خاصة إن كنت تطلبه لأجل خدمة المجتمع . . فأنت تدرس (علوم الحياة) ويمكنك من خلال هذا الاختصاص أن تدرس ضرر الفايروسات على البشر وتعمل دراسات مهمة من ضمن حالتك ! وفي نفس الوقت ستنفع بتلك الدراسات الكثير من البشر . .

أما تفكيرك بالموت الآن فهذا ليس من الحكمة في شيء يا طاهر ! ألم تسمع قول الشاعر الذي يحكي عن واقع هذه الحياة حين يقول :

كم من صحيحٍ مات مِن غير علةٍ . .

وكم من عليلٍ عاش حينًا من الدهرِ !

بينما كانت الفتيات الثلاث (جنات وأريج وإيثار) يتهيأن للخروج من القاعة ، اعترضت طريقهم طالبة من نفس مرحلتهم واسمها (غدير) قالت بشيء من الارتباك :

– المعذرة منكن.. لكني كنت أجلس خلفكن عندما سمعتكن تتفقن حول زيارتكن للأستاذة تسنيم!

قالت جنات بدهشة :

– نعم صحيح.. لكن بماذا يمكن أن نخدمكِ غاليتي؟

– أتمنى لو تأخذوني معكم فلقد سمعت الكثير عن حكمتها ودرايتها، وأتمنى أن اسألها عن أمرٍ ما وقد بات يحيرني كثيراً!!

قالت جنات وهي تمد يدها لغدير :

– هيا هيا.. على الرحب والسعة.

رحبت تسنيم بالفتيات الثلاث وأشارت إليهن بالجلوس، أما جنات فلقد اتجهت إليها وقبلتها لتجلس بقربها وهي تشعر بالفخر من هكذا أم واستاذة!

قالت تسنيم :

– من هي منكن أريج؟ ومن هي ايثار؟

ابتسمت الفتيات، وأشارت جنات إلى صديقاتها لتعريف تسنيم بهن.. ثم قالت :

– ماما أن غدير لديها سؤال!

قالت تسنيم بابتسامتها المعهودة :

– نعم حبيبتي غدير تفضلي..

قالت غدير بعد هنيهة من التفكير :

- إنني أعاني من عدم القناعة يا استاذة . . حتى باتت هذه المشكلة تؤذي والدي ووالدتي وحتى أخوتي !

- ولكن كيف ذلك أوضحي لي . . إن أمكن ؟ !

- أنني لا أقنع بأي شيء في حياتي ، دائمًا أتمنى لو أكون الأفضل من غيري سواء في الملابس أو طريقة المعيشة ، وصارت طلباتي تتزايد يومًا بعد يوم فكل شيء ارتديه أو أملكه أشعر بأنه لا يليق بي ! !

حتى أن أهلي ضاقوا بي ذرعًا ، وأنا أعلم بأني على خطأ لكني لا أعلم لماذا افكر هكذا ؟ أشعر بأن مشكلتي نفسية ليس إلا !

قالت تسنيم وهي تحَيّي غدير على صراحتها :

- جميل أن يكون لديكِ تأنيب الضمير هذا يا عزيزتي ، فهو يدل على روحكِ الطيبة وفطرتك السليمة ، أنتِ فقط تحتاجين إلى معرفة بعض الأمور المهمة !

- نعم يا أستاذة . . وكلي آذانٌ مصغية !

- لنعرف بالبداية ما هي القناعة ؟ ففي " لسان العرب" لابن منظور يقول (القناعة هي الرضا بالقسم) أما في " النهاية" لابن الأثير فهي (الرضا باليسير من العطاء) هذا من ناحية المعنى اللغوي أما من ناحية الدين فلقد ذكرت الكثير من الأحاديث والروايات الشريفة التي توضح لنا المعنى الحقيقي للقناعة وهي (الرضا بما قسم الله تعالى) وهذه تأتي إن نحن سلمنا جميع أمورنا بيد الله تعالى سواء في مسألة الرزق أو غيرها وفوضنا أمرنا إليه

فهو الذي حثنا في محكم كتابه الكريم على ذلك بأن نردد هذه الآية الكريمة (وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصيرٌ بالعباد) هو سبحانه يعلم مصلحة عباده فيجعلها لهم بأي طريقة كانت، فعلينا أن نرضى بذلك ولا نعترض بل نحمد الله على كل حال..

وورد في بحار الأنوار قول الإمام علي عليه السلام في هذا المعنى (طلبتُ الغنى فما وجدته إلا في القناعة، عليكم بالقناعة تستغنوا).

وفي معاني الأخبار ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام (الغنى في القناعة، وهم يطلبونه في كثرة المال فلا يجدونه) !

وإن سبيل كسب القناعة والرضا بما قسمه الله لنا عيّنه الإمام الصادق عليه السلام فلقد ورد في الكافي قوله :

(انظر إلى ما هو دونك في المقدرة، ولا تنظر إلى من هو فوقك في المقدرة، فإن ذلك أقنع لك بما قُسِم لك).

سألت غدير :

- وكيف يكون ذلك استاذة.. إذا أمكن توضيح !

- أن الإمام عليه السلام يقصد أنه إذا نظرنا إلى غيرنا ممن هم أقل مستوى منا ماديًّا فنرى معاناتهم وكيف يكابدون صعوبة العيش حينها سنحمد الله على ما منَّ علينا من نعمه وافضاله، وسنقنع بما وهبنا إياه من نِعم وأفضال لا تعد ولا تحصى !!

قالت إيثار وهي تتجه بنظرها صوب تسنيم :

- هل تسمحين لي يا استاذة أن اشترك بالحديث ؟

قالت تسنيم بفرحٍ غامر :

- نعم . . نعم تفضلي حبيبتي !

- شكراً استاذتي . . لقد قرأت عن تجارب أشخاص يعانون من عدة مشاكل نفسية ومنها مشكلة اختنا غدير ، ولقد علق في ذهني كلام لأحد الشباب الذين كانوا يعانون من عدم القناعة فعالجها طبقًا لحديث الإمام الصادق عليه السلام والذي ذكرتموه قبل قليل !

حيث يقول ذلك الشاب :

لقد عالجت مشكلتي تلك بزيارة الأحياء الفقيرة لأشكر الله على ما أنعم عليَّ، كما زرت المستشفى لأتفقد أحوال المرضى هناك ولأشعر بعظمة نعمة الصحة التي أنعمها الله عليَّ، أيضًا فلقد زرت المقبرة لينشرح صدري (إن ضاقت بكم الصدور فعليكم بزيارة القبور) . . أكملت إيثار بكل ثقافة :

- وأعتقد يا أستاذة بأن انشراح الصدر عند زيارتنا للقبور يأتي من علمنا حينها بأن حدود الدنيا هي هذه ! وإن ما بعدها خير وأبقى !

أعجبت تسنيم بلباقة إيثار وثقافتها الواسعة ، شكرت غدير للأستاذة تسنيم لطافتها وكذلك شكرت لإيثار مداخلتها الجميلة .

استأذنت الفتيات من تسنيم وخرجن بينما بقيت جنات بقربها . .

سرحت تسنيم بفكرها قليلا بعد أن أعجبت بشخصية إيثار صديقة جنات وصارت تسأل نفسها ماذا لو خطبتها لابنها علي ؟ !

ثم قالت وهي تبتسم : إن حصل ما أفكر به لن يبقَ إلا إيهاب وسأبحث له عن فتاة لا تقل التزامًا وثقافة عن ايثار !

وعندما وصلت تسنيم إلى التفكير بإيهاب قالت لجنات :

– أخبريني يا ابنتي . . ألم تجدي طالبة أخرى تشاركك طريقكِ من وإلى الجامعة ؟ !

قالت جنات بفرح :

– لقد نسيت أن أخبرك . . تحدثت مع " أريج" اليوم عن ذلك ووافقت على المجيء معي في نفس السيارة !

(١٩)

كان الاتصال الهاتفي هذه الليلة بين جنات وطاهر يختلف عن كل مرة ! فلقد جاءها صوته مليء بالأمل والتفاؤل، سألته جنات بدهشة :

- أجدك الليلة مرتاحًا بعض الشيء !

صمت قليلا ثم قال :

- لقد قضيت ليلة أمس وأنا أفكر بكلامك . .

- أي كلام ؟

- بخصوص عدم اليأس أو الاستسلام بسهولة، لقد رأيت أنه عين الصواب، فاتجهت صباحًا إلى الجامعة وأخذت المحاضرات بشكل طبيعي ولله الحمد !

قالت جنات بعيون دامعة :

- الحمد لله . . الحمد لله، نعم أكمل !

- ثم اتجهت إلى إحدى المكتبات العامة وبحثت عن الكتب التي تتكلم عن عدم اليأس والتي تبث في النفس طاقة إيجابية كبيرة . .

- وهل وجدت ؟

- نعم ولله الحمد وبدأت اقرأ، كما اشتريت بعضًا من المجلات العلمية والثقافية، استمعي إلى هذه العبارات الرائعة التي وجدتها في هذه المجلة . .

- هيا . . هيا اسمعني !

– العبارة الاولى للعالم أديسون إذ يقول (الإيمان يبقى حيًّا في نفوسنا ، ويزداد قوة بالاختبار !)

أما أميرسون فيقول (إن الداء الذي يعالجه الفكر البشري اليوم هو الحاجة إلى الإيمان)

أما أينشتاين فيقول (وحدها الحياة التي يحياها المرء من أجل الآخرين ، هي حياة ذات قيمة) .

– الله . . ما أجملها من عبارات ! !

– هل تعلمين يا جنات أنني قررت بعد هذا أن أحيا لأجل الآخرين ؟ !

– يا الله ! . . وكيف ذلك ؟ أخبرني !

– اليوم في أثناء المحاضرة تكلم لنا الأستاذ عن الفايروس المسؤول عن مرض العوز المناعي (الإيدز) عندها تذكرت كلامكِ ليلة البارحة ! ومنذ تلك اللحظة قررت أن يكون بحث التخرج في مرحلتي الأخيرة من الجامعة عن هذا المرض . . إن قدر الله لي أن أعيش إلى ذلك الحين !

قالت جنات وهي تزرع الأمل في قلبه أكثر :

– سيُقدر لك ذلك . . بإذن الله تعالى .

– هل تعلمين يا جنات ماذا تقول الإحصائيات عن هذا المرض ؟

– ماذا تقول ؟

– إن تسعة وثلاثين مليون ونصف المليون إنسان في العالم اليوم مصابون بمرض الإيدز ؟ !

وهل تعلمين أن ستمئة ألف طفل يصابون بهذا المرض سنوياً سواء في فترة الحمل أو أثناء الرضاعة من الام نتيجة إصابتها بالمرض ! !

أريد أن أبرز أهم أسباب هذا المرض حتى يكون الناس على علم وبينة وخاصة في المجتمعات المحافظة الذين يتوقعون أن هذا المرض لا يأتي إلا من العلاقات غير الشرعية !

– ولكن ماذا تقصد يا طاهر ؟ أوضح لي ارجوك !

– هل تعلمين أن هذا المرض ينتقل أيضا عن طريق الدم أو حليب الأم إن كانت مصابة ، وعن طريق استعمال نفس الأدوات سواء في الحقن الوريدي أثناء تعاطي المخدرات ، أو حتى في صالات العمليات أو عيادات طبيب الأسنان إن لم يتم تعقيم الأداة – وهذا أمر لا يحدث إلا نادراً جداً– كما ينتقل عن طريق وخز الجلد بالإبر في حالات الوشم والعمليات التجميلية التي تحدث اليوم في العيادات بل حتى في صالونات الحلاقة للرجال والنساء على حدٍ سواء ! !

قالت جنات :

– ولكن مجتمعاتنا اليوم باتت تجهل هذه الأمور ، فهل تعلم قيمة ما ستقوم به إن فكرت فعلا بإجراء دراسات حول جهل المجتمعات الشرقية لهذا المرض والذي صار يدخل إلينا من الغرب بشتى الطرق والوسائل ! !

– نعم حبيبتي وهذا ما صرت أفكر به كثيراً وأدعو الله أن يوفقني في ذلك .

بعد مرور عدة أشهر . .

– ماما أردت أن أحدثك بأمر مهم . .

– نعم تفضلي حبيبتي ! خير إن شاء الله ؟

– أولستِ تبحثين عن عروس لإيهاب ؟

– نعم نعم . . ولقد فكرت بواحدة !

– يا إلهي ! ولكن من هي ؟ قد تكون نفسها التي في بالي !

– إنها صديقتك أريج !

– سبحان الله . . هي نفسها ! لقد فكرت بها أنا أيضًا وخاصة أنها صارت تمدح إيهاب كثيراً هذه الفترة وتخبرني بأن والدها معجب بأخلاقه وشهامته، وبأنه ينزل ويسلم على والدها – الذي يكون في انتظارها – كلما أوصل أريج إلى باب المنزل .

– حسنًا جداً يا حبيبتي، وهذه بشارة خير على قبول خطبته لها بإذن الله تعالى .

تم عقد القران بين (علي وإيثار) وكذلك بين (إيهاب وأريج) في نفس الأسبوع مما حدى ببهاء وتسنيم إلى عمل حفل عائلي بسيط بهاتين المناسبتين . .

كان الجميع سعيد والضحكات تتعالى مع اهازيج الفرح والسرور، اتخذت جنات زاوية من زوايا الحديقة وهي تنظر لخاتم خطوبتها وتبكي !

تمنت لو أن طاهر معها الآن يشاركهم هذه الأفراح..

فجأة رنَّ جهازها الخلوي الذي كانت تمسكه بيدها، نظرت إلى الشاشة فظهرت لها صورة طاهر واسمه!

رددت مع نفسها :

- يا إلهي.. انه يتصل! وكأنه شعر بحاجتي الماسة لتواجده بيننا!

- السلام عليكم.. كيف حالك يا نور عيني؟

- وعليكِ السلام حبيبتي.. أحمل لكِ خبراً وأعتقد أنه أسعد خبر ستسمعيه في حياتك!

قالت بلهفة :

- خير ان شاء الله؟

جاءها صوته فرحًا مستبشراً :

- هل تذكرين عندما أخبرتك بإصابتي بالإيدز.. ماذا قلتِ لي حينها؟

- لا أتذكر.. ماذا قلت!

- عندما أخبرتك بأن صاحبي هو من أتى بنتيجة التحليل إلى المنزل.. اتذكرين؟

- اها.. نعم تذكرت! قلت لك حينها بأنه قد يكون مخادعًا أو مشتبها!! حينها أخرجت أنت ورقة التحليل من جيبك وأشرت إلى الاسم والنتيجة!

- لقد كان تخمينكِ في محله يا حبيبتي، ليتني سمعت نصيحتكِ وذهبت بنفسي للتأكد من النتيجة!

- ولكن ما الذي تقوله؟

- لقد قام ذلك الشخص الذي كان يأتي لنا بالمخدرات بعمل مكيدة قذرة لكل من قرر أن يتركه ويترك طريقه القذر ذلك !

- لقد أوهمنا بأنه مصاب بالمرض وكان قد اتفق حينها مع إحدى رفيقاته والتي كان والدها يملك مختبراً للتحليل بأن يأتي بنا إلى المختبر لعمل تلك الاختبارات وستقوم هي بإصدار نتائج مزيفة تعلن فيها أصابتنا بالإِيدز !

- ولكن كيف عرفت ذلك؟

- لقد فضحه أحد أصدقائه المقربين بعد خلاف قوي حصل بينهما ، وقام ذلك الشخص بإِخبارنا بتفاصيل تلك المكيدة الخبيثة . .

لم اشأ إخبارك إلا بعد أن ذهبت وعملت ثلاثًا من الفحوصات اللازمة والتي تثبت جميعها سلامتي التامة من أي مرض ! !

بكت جنات وهي تقول :

- لقد كنت أشعر بكل هذا منذ البداية ، لكنك عارضتني وكنت مصراً على رأيك ! كنت أشعر بسلامتك صدقني !

وضعت جنات الهاتف جانبًا ثم سجدت لله شكراً وهي تردد :

- الشكر لك يا الله . . الشكر لك !

عادت إلى رفع الهاتف ودموعها تصف مقدار فرحتها بهذا الخبر ، سمعت صوت طاهر :

- جنات . .جنات . . أين ذهبتِ حبيبتي؟

– أنا هنا يا نور عيني . . أخبرني الآن ؟ ما مصير أولئك الأوغاد ؟

– إنهم يقبعون في السجن الآن . . ذلك الوغد مع تلك الفتاة ، بل حتى والد الفتاة تم إيقافه وإغلاق مختبره إلى الأبد بعد تلك الفضيحة التي تعرض إليها ! !

– الف الحمد لله على فضله ونعمته ، والآن دعني أدخل إلى المنزل لأخبر أهلي بالأمر . .

– ولكن أين أنتِ الآن ؟

– انا في الحديقة . . الجميع يحتفلون في الداخل بعقد قرآن أخي علي ، وكذلك عقد قران إيهاب . .

– وماذا تفعلين أنتِ في الخارج ؟

– لقد تذكرتك وتمنيت لو كنت معنا الآن . . لم أكن أريد أن أبكي أمامهم ! !

– لن أتأخر عن المجيء إليكم بإذن الله تعالى ، فقط أريد أن أكمل إجراءات نقلي من الجامعة . .

– ماذا ؟ ولكن إلى أين ستنتقل !

– سأعود إلى أرض الوطن ، نعم لقد قررت أن أستقر في بلدي وسنتزوج هناك ، فأنا لا أريد لأولادي أن يعيشوا في هذه الأجواء المنفلتة !

قال وهو يشعر بالأمل :

– سأعود لبلدي . . وأدرس معك في نفس الجامعة ، وسيكون بحثي للتخرج عن (مخاطر انتقال الإيدز في مجتمعاتنا الشرقية) كما أخبرتك بالضبط !

كانت جنات تستمع لخطيبها بفخر وسعادة..

قال لها بكل ثقة :

– صحيح أن ما حصل معي بخصوص ذلك الخبر المزيف قد أفقدني توازني في البداية، لكن ولله الحمد وبفضل وقفتك الكبيرة معي فلقد كان ذلك الأمر حافزًا لي حتى أكون إنسانًا آخر !

إنسانًا يعرف ما معنى التمسك بالمبادئ الصحيحة والقيم الإِنسانية العظيمة المتمثلة بشريعة الدين الحبيب، كما أن خبر ذلك المرض جعلني أعرف قيمة كل دقيقة في حياتي وأحاول أن استغلها لخير الدنيا والآخرة وحتى لا تضيع مني هباءًا منثورا.

(٢٠)

في ليلة زفاف جنات وطاهر أحبت تسنيم أن تلهب القلوب بذكر الحبيب الموعود، ذلك الغائب الوحيد، الشريد الطريد..

ولّما كان في جعبتها الكثير من الكلام عنه روحي فداه فلقد استغلت إجتماع أكثر من خطيبين في ذلك الحفل البسيط، فكلامها لم يكن موجه للعريسين فقط بل لعلي وخطيبته وكذلك لإيهاب وخطيبته.. وكانت تمسك بيدها كتاب (صناعة الأنصار) حين قالت :

أنصحكم يا أولادي جميعًا بقراءة هذا الكتاب الرائع فهو ليس مجرد كتاب بل هو مشروع لتأسيس جيل مبارك ينصر إمام زمانه بعد أن قلَّ الناصر وعزَّ المعين!

اسمعوا ما يقوله السيد محمد الموسى في هذا الكتاب عن أهمية إختيار الأم الممهدة لإمام زمانها لتلد لنا طفلاً يكون من الأنصار لإمام زمانه بإذن الله، ويضرب لنا في زواج الإمام علي عليه السلام من ام البنين مثلا رائعًا، إذ يقول :

يا عقيل اختر لي امرأةً انجبتها الفحول من العرب.. أمير المؤمنين عليه السلام يجعل مقياسه في إختيار زوجته أن تكون مؤهلةً لأن تنجب له ولداً ينصر ولده الحسين عليه السلام.

لم يبالِ بكل المقاييس الاعتبارية، وحاشاه ذلك، إن العرق لدسّاس، أليس هذا مفاد كلام رسول الله؟ كما روي عنه قوله صلى الله عليه وآله : تخيروا لنطفكم فان العِرق دسّاس.

وأنت أيها العزيز إذا أردت ذريةً تبيض وجهك عند رسول الله صلى الله عليه واله وفاطمة الزهراء عليها السلام فعليك بالظفر بذات الدين، دع عنك جمالهن بغير خلقهن، فقد القيَّ على عاتقهن أمر جد خطير، فقد أوكلَ إليها مهمة صنع الانسان، وهذه الصناعة دقيقةٌ جداً .

وأما أنتِ أيتها المؤمنة، إذا أردتِ، كنتِ كمن أحيا الناس جميعا، إذا رزقتِ بالذرية الطاهرة التي تعمل الخيرات حتمًا أنتِ كمن أحيا الناس جميعا، لا بل أشد وأعظم. فأنتِ كالقرآن إذ أن كلاكما قد أوكل إليه مهمة صنع الإنسان.

فحذارِ أن يكون شريككِ في ذلك من يهوي بهمتك من هذه إلى أن تكوني مشاركة للشياطين في عملهم، وسببًا في سرورهم وفرحهم.

الكلام نفسه لك أيها المؤمن وليقتدِ كلٌ منكما بسيد المتقين علي أمير المؤمنين عليه السلام وأم البنين عليها السلام.

والحظ كل الحظ لزوجين التقيا على حب صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، وكان لكلٍ منهما سابقة عشق لإمام زمانه عليه السلام، هذه حقيقة لا يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم أخذته عناية الغريب الوحيد.

ولا تلهكما ليلة فرحكما عن ذكر ربكما..

كنا ولا زلنا في غفلةٍ عن أهم ما يورث السعادة ويبعد الشقاء، فليلة الزفاف هي الغفلة بعينها ! ويا ليتنا نكتفي بهذا المقدار بل ترانا نجعلها ليلةً حالكةً في معصية الله، وايذاء إمام زماننا عجل الله تعالى فرجه الشريف.

سألت أريج :

- وكيف ذلك يا أستاذة؟ أوضحي لنا بربك ما يقصد به الكاتب؟ !

- إنه يقصد يا حبيبتي تلك المعاصي التي ترافق ليالي الزفاف من حفلات مختلطة أو حتى ولم يكن الحفل مختلط بين الرجال والنساء فيكفي أن تعلو منه أصوات الغناء وتمايل النساء بالرقص ليكون ليلة فاحشًا والعياذ بالله !

يصفها الكاتب بالقول :

تلك ليلةٌ لا يرجى خير فيها ولا تورث إلا الخيبة والخسران، فمن البداية خسرا الحرب مع إبليس لا بل ادخلا السرور عليه !

وأحزنا إمامهما فأنّى لهما التوفيق؟ وهكذا كان بادئ اجتماعهما على ما يسخط رسول الله صلى الله عليه واله ويوجع قلب ابن فاطمة الزهراء عليها السلام.

ويلفت أهل البيت عليهم السلام الأنظار ايضاً إلى أهمية الدعاء وإنه سبيل توفيق لصلاح العيال، فعليكما بالدوام عليه..

ومع الدعاء الزم العمل على ما يحقق ذلك، ولا تنسيا الحسين عليه السلام إمامكما، حتى في ليلة فرحكما فابكيا، ولوريث ألمه إمام زمانكما فاندبا، وخاطباه وقولا له :

(سيدي يا ابن الزهراء ! اجتمعنا بك وفيك وعلى حبك وأردنا بذلك نصرتك فاجعل لذريتنا نصيباً من عنايتك . فان تزوجنا عسى أن نلد ولداً ينصرك ويضمد لك جراحاتك) .

واسألا الله عز وجل أن يلين قلب ذريتكما لولي أمره عجل الله تعالى فرجه الشريف .

ولا شك في أن في هذا الفعل وفي هذه الليلة التي عمرت بذكر الله وبذكر حبيبه صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف والتي هي ليلة زواجكما لا شك في انكما تستوجبان عنايةً منه فكثير من الناس كان لاهياً فيها بل ومرتكبًا للمعاصي وقليلٌ امثالكما ، فحقت لكما العناية بلطفه وعطفه وكرمه .

ولا أعلم أي فرحٍ يقع في قلب مولاي صاحب الزمان في تلك اللحظة وأي عمل ذاك هو الذي سرَّ منه قلب عزيز فاطمة الزهراء عليها السلام . . نعم هكذا ينبغي أن يكون شيعتهم .

أغلقت تسنيم الكتاب بعد أن إنتهت من قراءة بعض المقاطع المهمة به والتي قد لونتها بلون أصفر فسفوري حتى تجدها بسهولة حين تحتاج إليها ، حينها سألها علي :

– أماه . . ألم يذكر صاحب هذا الكتاب شيئًا عن كيفية تنشئة الأطفال على حب صاحب الزمان ؟ !

أعادت تسنيم فتح الكتاب وهي تقلب صفحاته وتقول :

– بلى.. إن الهدف من الكتاب هو هذا الذي قلته بالضبط، لكني قرأت لكم بعضًا من بدايته لأنكم جميعًا ممن سيقبلوا قريبًا على الحياة الزوجية يا ولدي، إسمع ما يقول هنا :

ينبغي لنا أن نصد أبناءنا عن كل شيءٍ سوى نصرة الإمام، علينا أن نحقق فيهم ذي النية العظيمة التي فاز من سار عليها منذ الصبا وخسر من فرَّ حتى كبر وعتى!

فهنيئاً لمن نذر نفسه وذريته لابن فاطمة الزهراء عليها السلام وافنى عمره في سبيل نصرتهم وظهور قائمهم عجل الله تعالى فرجه الشريف.

إذ أن هذا هو الفوز لا غير وواخجلةً امرئٍ ذهبَ عن الدنيا ولم يبقِ لولي الأمر ناصراً ولا معينًا حتى!

إن هذا البطن الذي اهتزت أوتاره بندبة الإمام لكفيل بأن ينجب ناصراً له، هذا القلب الواله على صاحب الزمان لا يصعب عليه أن ولداً كهذا يكون للمهدي كالعباس للحسين عليه السلام.

سألت جنات وهي تلاحظ انشداد طاهر للموضوع :

– أماه.. كيف إن كانت ذريتي من البنات؟ فهل سأتمكن من جعلهنَّ من الأنصار؟!

ابتسمت تسنيم فقد توقعت هذا السؤال من أحدهم، ثم عادت لتتصفح أوراق ذلك الكتاب.. وأخيراً استقرت على إحدى الوريقات وهي تقرأ :

ولتعلمي ان لإمامكِ عليه السلام من النساء أنصار فلا تعجبين أن قلت إن لهن من الثلاث مئة والثلاث عشر خمسون !

خمسون مقعد صدقٍ ينصرن به الله وناصر دينه بل لعلهن يفقن في مراتبهن الرجال.

فلمَ التحسر بعد ذلك لعدم انجاب الذكر؟ والأنثى بين يديك مستطيعةٌ للتضحية وللفداء، ولك من الطرق ما شاء الله لنصرة هذا الإمام الغريب بين الأنام.

فمن قال يومًا أن أبواب الله وأبواب اوليائه قد اغلقت بل هي مفتوحة وخصوصاً لأهل الإيمان اناثًا كانوا أو ذكران، فلذا فلتطرقي ابواب النصرة لهم، وكوني من الثلاثمئة والثلاث عشر.. ولتجعلي بنتكِ تطرق هذا الباب علها توفق لنصرة ابن الاطياب.

يقول الامام الباقر عليه السلام بعد حديثٍ طويل:

(يجيء والله ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فيهم خمسون امرأة يجتمعون لمكة على غير ميعاد قزعاً كقزع الخريف يتبع بعضهم بعضا) .

استمرت تسنيم بالقراءة :

أنا أريد منكم أن لا تكتفوا بالقليل فإذا أردتم شيئاً فابلغوا غايته، عليكم أن تبلغوا غاية النصرة للإمام " عجل الله تعالى فرجه الشريف" حتى لا يبقى شيءٌ لم تبلغوه منها وبكل ما لديكم.

بأرواحكم وازواجكم وذرياتكم وكل ما خولكم به ربكم فلقد أعطيت لكم فرصةً جداً خطيرة فاغتنموها، فكم تمنى الائمة عليهم السلام أن ينالوها ولكن حالت الآجال بينهم وبينها.

سأل طاهر :

– وهل تمنى الائمة الأطهار أن يكونوا في زماننا هذا يا عمتي؟!

– نعم يا ولدي فقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عندما ذكر صاحب الزمان :

(بأبي ابن خير الإماء.. هاه – واومأ بيده الى صدره – شوقاً الى رؤيته، آه آه شوقاً الى رؤيته).

وقد قال الإمام الباقر عليه السلام معبراً عن أهمية زماننا هذا وكيف يجب أن نبقي أنفسنا لأجل الإمام المهدي عليه السلام :

(بأبي وأمي المسمى بإسمي والمكنى بكنيتي السابع من بعدي، بأبي من يملأ الأرض عدلاً وقسطًا كما ملئت ظلمًا وجورا، أما إني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر) .

وقال الإمام الصادق عليه السلام وهو يتكلم عن الإمام الموعود : ولو أدركته لخدمته أيام حياتي.

قال إيهاب مندهشًا :

– الإمام الصادق عليه السلام يتمنى خدمة إمامنا المهدي!

ركنت تسنيم الكتاب جانبًا وهي تقول :

– لا تستغرب يا ولدي، فلو جمعنا قول الإمام الباقر مع قول ولده الإمام الصادق " عليهما السلام" فهل تعلمون ماذا ستكون النتيجة؟

سأل الجميع بدهشة : ماذا ستكون؟

– الإمام الباقر يتمنى أنه لو يستطيع أن يحافظ على نفسه (لاستبقيت نفسي) لأجل ولده المهدي.. والإمام الصادق يتمنى أنه لو عاش لزمن المهدي لخدمه طول حياته.. فالنتيجة :

إن علينا ما دمنا رزِقنا البقاء في زمن الإمام المهدي عليه السلام – وهو هذا الزمن ما دام هو إمامه– أن نحافظ على أنفسنا ما إستطعنا إلى ذلك سبيلا حتى زمن الظهور، وأن نقضي أعمارنا كلها في خدمة إمام الزمان يا أولادي.

سألت إيثار :

– وهل الخدمة تكون في زمن ظهوره الشريف؟ أم حتى في زمن غيابه يا عمتي؟!

– بل في كليهما.. نحن الآن عندما نجلس ونتحدث عن كيفي تنشئة الأنصار لله روحي فداه هذه خدمة، عندما نقوم بتذكير الناس بإمام الزمان ووجوب محبته ونصرته.. هذه خدمة، عندما نهيّء أنفسنا وذرياتنا ومن نعرفهم لاستقبال الإمام فهذه خدمة، عندما نبقي أعيننا على المحتاجين من أيتام آل محمد فهذه خدمة، عندما نعطي الحقوق الشرعية لمستحقيها بإسم الإمام الحجة.. فهذه خدمة.

فلا تتخيلوا يا ابنائي بأن خدمتنا لإِمام زماننا تتوقف عند حد معين، بل علينا أن نحقق أمنية إئمتنا عليهم السلام في أن نخدمه ما حيينا.

(٢١)

بعد مرور عامين . .

– تعالي يا جنات . . انظري بربكِ إلى أوراق البحث . . هل هذا مصير جهدي وتعبي لعامين كاملين ؟ ! !

جاءت جنات وقد هالها منظر الأوراق الممزقة ! سألت بدهشة :

– ولكن من فعل ذلك ؟ !

– ومن يكون غير ملاكنا الصغير . . زهراء ؟ !

أكمل طاهر وهو مستمر بالضحك :

– انظري إليها . . إنها تدحجني بنظرة حادة ! وكأنها لم تقبل على كلامي !

إتجهت جنات راكضة نحو إبنتها ذات السبعة أشهر وهي تضمها إلى صدرها وتقول :

– كيف أعطاك قلبك أن تصرخ بوجه ملاكي هكذا يا طاهر ؟ ! ثم ألم أحذرك منها سابقًا بأنها ومنذ أن بدأت تحبو صارت تمزق أي ورقة تجدها أمامها ؟

صار طاهر يلملم أوراق بحثه وهو يقول :

– عليَّ أن أعود لسحبه من الحاسبة مجدداً ، كل هذا بسبب طفلتك المدللة !

صرخت زهراء وكأنها فهمت قصده ، فانفجر الاثنان بالضحك وهما يداعبنها بكل لطف وحنان .

وتمر السنوات أكثر . .

كان الجميع قد سعى للتواجد في بيت الأستاذ بهاء لتوديعه هو والأستاذة تسنيم وهما يشدّان الرِحال إلى الديار المقدسة.

ستؤدي تسنيم في هذا العام مع زوجها مراسيم الحج المقدس بعد أن حاولت تأدية كل ما في رقبتها من أمانة كانت قد أثقلت كاهلها لسنواتٍ طوال..

ها هو علي يجلس بالقرب من زوجته إيثار وهما ينتظران قدوم مولودهما الأول، وقد جاء إيهاب برفقة زوجته أريج وأخويه (حسام وسيف) الذين صارا مؤخراً من أفراد العائلة بعد أن تمَّ عقد قرانهما على الآنستين (هبة ومريم).

جلست جنات بالقرب من زوجها طاهر، وبينهما كانت تجلس إبنتهما زهراء التي كلما كبرت صارت أشبه بجدتها الراحلة (مريم) .

دخلت تسنيم مع بهاء غرفة الضيوف وهما يحملان حقائب السفر..

قام الجميع لإلقاء التحية عليهما قبل الرحيل، ولتقديم الشكر والعرفان لهما بالخصوص (تسنيم) التي لم تدخر جهداً في تقديم المساعدة لهم جميعًا وتذليل العقبات التي كانت تواجههم في حياتهم.

كان الجميع يشعر بأنه ممتن لهذه الانسانة الرائعة والتي حاولت أن تكون لهم أمًّا حقيقية بكل ما تحمله كلمة (الأم) من معانٍ سامية.

عند بيت الله الحرام.. وما أن شاهدت تسنيم ذلك البناء الشامخ الملفع بالسواد وقد أحاطت به هالة بيضاء من النور والقداسة لم تتمالك نفسها ! فوقعت على ركبتيها وقد غشيت عينيها دموع الشوق والرهبة ! !

بدأت تردد كلمات الشكر والامتنان لخالقها العظيم والذي ما تركها لحظة واحدة منذ ولادتها وإلى ساعتها هذه..

ولطالما شعرت بقربه ووجوده بين أضلعها بل ومحيط بكل كيانها حتى صارت إنعكاسًا طبيعيًا من انعكاسات نوره المقدس ! فصارت تتراءى لمن حولها من البشر كالملاك الطاهر الذي لا يصدر منه إلا الخير والحكمة ومحبة الآخرين..

ها هي اليوم وبتلك الكلمات والدموع صارت تُعبر لربها عن ذلك العشق الرائع والذي لا يحلو إلا له سبحانه، فكان هو منبع الحب في قلبها وبسبب ذلك الحب صارت تحب كل من حولها (حبًا في الله) فنراها قد أغدقت عليهم من عطفها وحنانها وحِرصها بل ونصائحها التي طالما أنارت لهم الطريق..

هي الآن تشعر بأنها يجب أن تشكر الله حق شكره على كل هذه النِعم والأفضال التي منَّ بها عليها، فلولاه سبحانه ولولا حبه الذي ملأ خافقيها ما كان لها كل هذه المنزلة والمحبة عند أهلها وأصحابها وكل من عرفها !

كان أول الدعاء لإمام زمانها بالفرج القريب والعاجل.. ثم صارت تدعو لكل من تعرفه من قريبٍ أو بعيد !

ولم تنسَ أن تدعو لوالديها بأن يتغمدهما الله برحمته الواسعة فهما اللذان غرسا في قلبها ذلك الحب العظيم.

تذكرت تسنيم في هذه اللحظات الملكوتية تلك المقطوعة العشقية التي كانت تحب أن ترددها منذ الصغر وإلى يومها هذا..

في السابق كانت ترددها وهي مستلقية على سريرها أو جالسة على سجادة صلاتها أما اليوم فهي متلهفة لمناجاة خالقها بتلك المقطوعة أمام بيته الحرام، في أشرف وأقدس بقعة على وجه الأرض..

رددت ودموعها تسبق كلماتها :

أحبك يا صباح الروح يا أُنسي لدى الشجنِ
لأنك في دروب العمر بالحسنى ترافقني
وتسمع صوتي الواهي وحين أزلُّ تدركني
ولو ينسى وجودي الناس تبقى أنت تذكرني
أحبك يوم ترأفُ بي على نعشي وفي كفني
ويوم يهيلُ فوقيَ الموت نسيانًا فيسترني!
أحبك مدركًا أني على سَوئي ستقبلني...
وتفتح بابك العلوي وفي الفردوس تدخلني
أحبك يا صباح الروح.. يا تسبيحة الزمنِ.